نثر الخلفاء العباسيين

إبان العصر العباسي الأول

((جمعاً ودراسة))

بحث مقدم من

د/ جواهر بنت عبد العزيز بن عبد الرحمن آل الشيخ

الأستاذ المساعد بقسم اللغة العربية كلية التربية للبنات

الأقسام الأدبية بالرياض - المملكة العربية السعودية

مقدمة حول نثر الخلفاء العباسيين

إبان عصرهم الأول

من البدهى أن يزداد الاحتياج للأداء الوظيفى لفن الكلمة المنطوقة والمكتوبة فى بدايات الحياة العباسية السياسية بالذات، فقد ازدادت حاجة الخلفاء العباسيين إلى جميع فنون القول النثرية التى خدمت فترات الصراع السياسى والجدل حول أحقية الخلافة.

ومن هنا كان التنافس بين خلفاء بنى العباس وأعدائهم حول توظيف الكلمة سعياً خلف السيطرة على مشاعر الناس وإقناعهم بالبراهين والأدلة المؤيدة وذلك إما للدفاع عن شرعية الحكم العباسى، أو لتثبيت أركان الدولة فيما بعد.

وكل ذلك من خلال الكلمة المنطوقة أو المكتوبة، فالمنطوقة تمثلت فى الخطابة التى كانوا يرتجلونها ارتجالاً بسبب ما أوتوا من فصاحة القول وبلاغته، أما المكتوبة فتمثلت فيما يخطونه بأيديهم أو على الأقل يملونه على كتابهم من رسائل ديوانية أو إخوانية أو عهود أو وصايا أو توقيعات كانت هى الغاية فى البلاغة.

وقد عرف هؤلاء الخلفاء العباسيون الأوائل بانهم مشجعون للأدب داعمون للفكر من خلال بلاط دولتهم العامرة، ولكن لم يتسن لأحد أن يحرص على جمع تراثهم النثرى الذى أبدعوه ثم أورثوه للأجيال من بعدهم، بل بقى مشتتاً بين مصادر التاريخ والأدب، إضافة لكونها خالية من النقد الفنى الذى يبرز جمالها الأسلوبى ويوضح أهمية معانيها الخطيرة المرادة، ما عدا محاولات يسيرة متفرقة.

لذا فقد دخلت هذه الساحة التى تكاد تكون مهجورة وعزمت على خوض هذا الأمر المجهد، لعلى أجد فيه أبعاداً مهمة لها خصوصيتها تكشف سياسة ذلك العصر العظيم، وتستطلع طبيعة الحياة الاجتماعية والدينية والأخلاقية والأدبية، لأنالكلمة النثريةالبليغة تظل وسيلة مؤكدة لتصوير التجربة والتعبير الجلى عنها ونقلها إلينا عبر العصور.

راجية من المولى الموفق الكل خير أن تكون هذه الدراسة -كما أردتها- دراسة شاملة ودقيقة تناولت قضية مهمة من قضايا مناهجنا التاريخية الأدبية الشريفة بالاستقصاء والدراسة، لإلقاء الضوء على حقبة زمانية جديرة بالاهتمام، قادها أدباء عظام عشقوا الأدب قولا وتشجيعاً.

****

أنواع نثر الخلفاء

الفصل الأول

فن الخطابة

مدخل إلى فن الخطابة:

الخطابة نوع من أنواع النثر الفنى الذى كان يعلب دوراً مهماً فى حياة العرب، إذ كانوا يستخدمونها فى المنافرات والمناظرات وفى المناسبات السياسية والاجتماعية وفى النصح والإرشاد وفى الوفادة على الملوك والحكام، ولذا تعد قسماً من أقسام الأدب المهمة وتعتمد على سنن فنية وطوابع بارزة فى إبراز الفكرة، ولكل مناسبة أسلوب يختلف مع اختلاف التقاليد الفنية من عصر إلى عصر وحسب البيئات الفنية المتباينة، وأهم ما يبرز فيها العاطفة والعبارات القوية والمؤثرة التى تجذب الأسماع والقلوب إليها[١].

وقد نشأت الخطابة كفن أدبى قائم بذاته عندما كانت اهم وسيلة للاتصال بالجماهير وتوجيهها، وقد نشأ مفهوم الخطابة مختلطاً بمفهوم البلاغة ووسائلها المختلفة، وبالرغم من أن الخطب القديمة ألقيت فى مناسبات تاريخية معينة، وكان من الممكن أن تموت إلا أنها خلدت كجزء من التراث الأدبى كلما توفر لها شرطان:

أولهما: قوة الصياغة اللغوية لهذه الخطب، وتمتع أسلوبها بنفس الخصائص الموسيقية والبيانية التى تمتع بها أسلوب الشعر عندما كانت الخطابة تؤدى نفس الوظيفة الشعرية وهى إثار النفوس وحفز الهمم وتحريك الجماهير.

وثانيها: هو أن تتضمن تلك الخطب قيماً إنسانية هادفة كالحفاظ على العزة والكرامة والذود عن الوطن والغيرة على العرض أو الدعوة إلى الوئام أو المحبة بين أبناء الأمة الواحدة أو التشجيع على الجهاد، وما شابه ذلك من قيم إنسانية باقية تصلح لكل زمان ومكان ويستجيب لها البشر باستمرار[٢].

وتعد الخطابة من أهم الفنون الأدبية التى ظهرت لدى الخلفاء العباسيين إبان فترة حكمهم فى العصر الأول، بل لنقل إنهم قد أبدعوا فيها دون تردد، ولا غرو فى ذلك لأنها كانت إحدى وسائلهم المهمة فى الترويج لحكمهم ودولتهم أثناء مرحلة

---

(١) إنظر: المدخل فى دراسة الأدب: د. مريم البغدادى ص ٣٨.

(٢) انظر: الأدب وفنونه: د. محمد مندور ص ١٥٢- ١٥٦.

التأسيس، وخصوصا الخطابة السياسية التى أكثروا منها، ذلك لكى يثبتوا أحقية أسرتهم فى الحكم، ومكانتهم الدينية، وإظهار مثالب الأعداء فى المقابل، وما أكثرهم من منافسين كفلول بنى أمية وبعض مناصريهم، والعلويين أبناء عمومتهم الذين اتحدوا معهم فى البداية ثم ما لبثوا أن خالفوهم وخرجوا عليهم.

كل ذلك وغيره جعل الخلفاء العباسيين الأوائل يكثرون من الخطب السياسية بل ويرتجلونها ارتجالاً يثبت قدراتهم البيانية وتمكنهم البلاغى، وينطبق هذا القول أكثر ما ينطبق على الخلفاء المؤسسين أمثال: أبى العباس السفاح، وأبى جعفر المنصور، والمهدى، وهارون الرشيد، والمأمون.

فقد نشطت الخطابة السياسية فى مطلع هذا العصر إذ اتخذتهاالثورة العباسية أداتها فى بيان حق أحفاد العباس رضى الله عنه فى الحكم، فكانوا يحسون منذ أول الأمر بأن أبناء عمهم العلويين يضطغنون عليهم استئثارهم بالخلافة من دونهم، فمضوا يؤكدون فى خطابتهم أنهم أصحاب هذا الحق، فهم الذين أدالوا للشعب من بنى أمية، وهم الذين قوضوا حكمهم وحطموه حطما، وقد انهالوا عليهم بالطعن العنيف[١].

وقد كان خلفاء بنى العباس جميعا فى العصر الأول لهم القدح المعلى والمكانة الرفيعة والباع الطويل فى مجال الخطابة بدرجة لا يكاد يزاحمهم عليه أحد ولا يدانيهم فيه صاحب كفاية ممتازة، إذ كانت الخطابة من أظهر شعار الإمامة[٢].

وكان من أظهر خطباء أبناءالعباس الذين شهد لهم النقاد والمؤرخون بأنهم يتكلمون فيبلغون حاجتهم على البديهة (المنصور فأخوه السفاح وعمهما داود بن على) الذى كان من أنطق الناس وأجودهم ارتجالاً واقتضاباً للقول، بل يقال أنه لم يتقدم فى تحبير خطبة قط[٣].

---

[١] انظر: العصر العباسى الأول: د. شوقى ضيف ص ٤٤٨.

[٢] انظر:تاريخ الأدب العربى- إبراهيم أبو خشب – ص ٢٣٠.

[٣] انظر: البيان والتبيين، للجاحظ، ٢٣١/١.

أنواع الخطابة لدى خلفاء العصر العباسى الأول

أولا : الخطابة السياسية :

وأول من نتوقف عنده من أولئك الخطباء الخلفاء من بنى عباس فى مجال الخطابة السياسية هو الخليفة الأول أبو العباس عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم، الذى لقب أو لقب نفسه بالسفاح، وقد اشتهر بالبلاغة سريعة البديهة[١]، حيث نراه يقول فى إحدى خطبه السياسية الطابع لما بويع بالخلافة وصعد منبر الكوفة[٢]:

((الحمد لله الذى اصطفى الإسلام لنفسه تكرمة، وشرفه وعظمه، واختاره لنا، وأيدنا به، وجعلنا أهله وكهفه وحصنه، والقوام به، والذابين عنه. والناصرين له، وألزمنا كلمة التقوى، وجعلنا أحق بها وأهلها وخصنا برحم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرابته، وأنشأنا من آبائه وخصنا من شجرته، واشتقنا من نبعته، وجعله من أنفسنا عزيزاً عليه ما عنتنا، حريصا علينا بالمؤمنين رءوفا رحيما، ووضعنا من الإسلام وأهله بالموضع الرفيع، وأنزل بذلك على أهل الإسلام كتاباً يتلى عليهم فقال عز من قائل فيما أنزل من محكم القرآن " إنما يريد ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً، وقال: "قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى"، وقال" وأنذر عشيرتك الأقربين" وقال" ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل" وقال "واعلموا أنما غنمتم من شئ فإن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل" فأعلمهم جل ثناؤه فضلنا، وأوجب حقنا ومودتنا، وأجزل من الفيئ والغنيمة نصيبنا، تكرمة لنا، وفضلا علينا، والله ذو الفضل العظيم)).

فعلى الرغم من أن هذه الخطبة للسفاح خطبة سياسية إلا أنها تحكل ألفاظاً إسلامية من مبتدئها إلى منتهاها فهو يبدأ بحمد الله تعالى الذى خصهم برحم رسوله

---

[١] تاريخ الخلفاء – للسيوطى، ص ٢٥٨.

[٢] تاريخ الرسل والملوك: للطبرى ٨٤/٩.

صلى الله عليه وسلم، ويؤكد هذا الأمر بكل ما يستطيع من براهين الإثبات بالآيات القرآنية الكريمة.

ثم بعد ذلك يدحض رأى أعدائهم الذين يرون أن لغيرهم أحقية الخلافة قبلهم، حيث يركز على نقيصة بنى حرب وبنى مروان الذين حكموا بالجور والظلم والفساد، حسب ما جاء فى بقية خطبته التى يقول فيها مردفاً[١]:

((وزعمت السبئية الضلال أن غيرنا أحق بالرياسة والخلافة منا، فشاهت وجوههم، ولم أيها الناس، وبنا هدى الله الناس بعد ضلالهم، وبصرهم بعد جهالتهم وأنقذهم بعد هلكتهم، وأظهر بنا الحق وأدحض بنا الباطل، وأصلح بنا منهم ما كان فاسداً، ورفع بنا الخسيسة، وأتم بنا النقيصة، وجمع الفرقة حتى عاد الناس بعد العداوة أهل تعاطف وبر، ومواساة فى دينهم ودنياهم، إخوانا على سرر متقابلين فى آخرتهم، فتح الله ذلك منة ومنحة لمحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما قبضه الله إليه قام بذلك الأمر من بعده أصحابه، وأمرهم شورى بينهم، فحووا مواريث الأمم، فعدلوا فيها، ووضعوها وأعطوها أهلها، وخرجوا خماصا منها، ثم وثب بنو حرب ومروان فابتزوها وتداولوها بينهم، فجاروا فيها، واستأثروا بها. وظلموا أهلها، فأملى الله لهم حينا حتى آسفوه، انتقم منهم بأيدينا، ورد علينا حقنا، وتدارك بنا أمتنا، وتولى نصرنا، والقيام بامرنا ليمن بنا على الذين استضعفوا فى الأرض، وختم بنا، كما افتتح بنا، وإنى لأرجو ألا يأتيكم الجور، من حيث أتاكم الخير، ولا الفساد من حيث جاءكم الصلاح، وما توفيقنا- أهل البيت- إلا بالله يا أهل الكوفة انتم محل محبتنا، ومنزل مودتنا، أنتم الذين لم تتغيروا عن ذلك، ولم يثنكم عنه تحامل اهل الجور عليكم ، حتى أدركتم زماننا، وأتاكم الله بدولتنا، فأنتم أسعد الناس فأنا السفاح المبيح والثائر المبير)).

ففى الختام نراه ينهى خطبته بشكره وعرفانه لأهل الكوفة الذين وقفوا مع دعوتهم وآزروها فليس لهم إلا رد الجميل بمثله وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟

---

(١) نفسه.

كما خطب هذا الخليفة خطبة أخرى بالشام عندما قتل مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية فقال[١]: (("أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْقَرَارُ" نكصت بكم يا أهل الشام آل حرب، وآل مروان، يتسكعون بكم الظلم، ويتهورون بكم مداحض الزلل، يطؤون بكم حرم الله وحرم رسوله، ماذا يقول زعماؤكم غداً؟ يقولون: ((رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ)). إذ يقول الله عزوجل ((قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ)). أما أمير المؤمنين، فقد ائتنف بكم التوبة، واغتفر لكم الزلة، وبسط لكم الإقالة، وعاد بفضله على نقصكم، وبحلمه على جهلكم، فليفرخ روعكم، ولتطمئن به داركم، ولتعظكم مصارع أوائلكم، فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا)).

من خلال قراءتنا لهذه الخطبة التي هي أقل إطنابا من سابقتها، نلاحظ أن موضوعها أيضا يكاد يغايرها وإن سارت في نفس طريق الدعوة العباسية، فإذا كانت الخطبة السابقة قد وجهت للأنصار وهم أهل الكوفة وكانت تحمل البشائر المعنوية والمادية، فإن اللاحقة موجهة للأعداء ومناصريهم من أهالي الشام موقع حكم الأمويين، إذن فهي تحمل طابع التهديد والوعيد بل الإنذار الشديد إن لم يعودوا عن غيهم، ورغم قصد هذه الخطبة إلا أنها مدعمة بآي الذكر الحكيم كدليل على صحة القول. وكسب لعواطف المتلقين، ولتخويف المناهضين.

ثم بعد أن يموت السفاح يتولى بعده أبو جعفر المنصور. الذي كان نادرة أهل زمانه علماً وأدباً وعقلاً ورأياً وبعد نظر وحسن سياسة، أما فصاحة لسانه ومتانة بيانه وعمق تفكيره وقوة بلاغته وشدة بصره بنواحي القول، وأساليب الكلام، وتملكه زمام الفصاحة من الأمور التي لا يمارى فيها أحد ولا ينكرها عليه إنسان[٢]. فلم يكن في العباسيين أبين منه ولا أخطب[٣]. ومن خطبه السياسية ما ذكره ابن عبد ربه عن إحدى خطبه موجزة اللفظ مطنبة المعنى، يتهدد فيها ويتوعد

---

(١) العقد الفريد: لابن عبد ربه ٤/٩٤.

(٢) انظر: تاريخ الأدب العربي: إبراميم أبو خشبة ٢٣٠.

(٣) انظر: العصر العباسي الأول: د. شوقي ضيف ص٤٤٩.

من يساند عدوه أو يحذو حذوهم فقال[١]:

((خطب أبو جعفر المنصور واسمه عبد الله بن محمد بن على، لما قتل الأمويين فقال: أحرز لسان رأسه، انتبه امرؤ لحظه، نظر امرؤ فى يوم لغده، فمشى القصد، وقال الفصل، وجانب الهجر. ثم أخذ بقائم سيفه فقال: أيها الناس، إنكم بكم داء هذا دواؤه، وانا زعيم لكم بشفائه، فليعتبر عبد قبل أن يعتبر به، فإنما بعد الوعيد الإبقاع، وإنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله)).

وتبين هذه الخطبة بلاغة المنصور وأسلوبه المميز الذى يهدف إلى ترويع عدوه وجذب صديقه، ورغم إيجازه اللفظى فيها إلا أنها مشحونة بالصور الفنية التى تنم عن بلاغة متناهية مثل: أحرز لسان راسه، فهو يهدد حتى من يتسرع بالقول المذموم الذى يشيع به الفتن والخروج على الدولة، نراه أيضا يستخدم أسلوب الإزدواج بين جمله التى ينشر بها الرعب بين أعدائه ويؤكد لهم أنه الرجل القوى. ونراه فى خطبه السياسية التوعدية ينهج نهج أقوى الرجال غلظة على من عادى دولته، وهو الحجاج بن يوسف الثقفى مقولته الشهيرة متوعداً: " يا أهل العراق ... يا أهل الكفر والشقاق.... إنى لأرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها وإنى والله لفاعلها". وذلك حينما قال المنصور فى خطبته السابقة على سبيل المثال مشيراً إلى سيفه: ((أيها الناس: إن بكم داء هذا دواؤه، وأنا زعيم لكم بشفائه)).

كما ذكر له صاحب العقد خطبة سياسية أخرى هى الغاية فى البلاغة، يقول فيها مخاطباً أهل الشام الموالين للأمويين أعداء العباسيين[٢]:

" شنشنة أعرفها من أخزم من يلق أبطال الرجال يكلم، مهلا مهلا، روايا الإرجاف، وكهوف النفاق، عن الخوض فيما كفيتم، والتخطى إلى ما حذرتم، قبل أن تتلف نفوس، ويقل عدد، ويدول عز، وما أنتم وذاك، ألم تجدوا ما وعد ربكم من

---

[١] العقد الفريد: لابن عبد ربه -٤/٩٥.

[٢] المصدر السابق ٤/٩٥.

إيراث المستضعفين من مشارق الأرض ومغاربها حقا والجحد الجحد[1]. ولكن خب كامن وحسد مكمد، فبعداً للقوم الظالمين".

ونرى المنصور يستدل فى خطبه بالأشعار كما يستدل بالآيات الكريمات حيث يبتدئ خطبته القوية هذه ببيت شعر يحمل كل معانى التهديد والوعيد. كما يعمد إلى التكرار اللفظى مثل مهلاً مهلاً، والجحد والجحد، وما ذاك إلا ليزيد فى لهجة توعده لمن خالف.

ولم يكن الأمويون هم وحدهم أعداء العباسيين، فبعد القضاء على آخر فلول الأمويين وقبل آخر خلفائهم ثم توعد مناصريهم من أهل الشام، ظهر لهم منافس خطير من أبناء عمومتهم العلويين الذين رأوا أنفسهم أحق منهم وممن سواهم فى خلافة أمر المسلمين، فكأنما الخليفة العباسى أبو جعفر المنصور أحس بتعاطف البعض معهم، لذا أنشأ خطبة طويلة يتهدد فيها ويتوعد هؤلاء وأولئك، ويشكر فيها أهل خراسان أكبر المشايعين لبنى العباس، ويبرر لهم أسباب حربه للعلويين مستخدماً الأسلوب التاريخى فى سرد بعض الأحداث التى يرى أنها فى صالح أبناء العباس، حيث روى الطبرى فى تاريخه أن المنصور لما أخذ عبد الله بن حسن وأخوته والنفر الذين كانوا معه من أهل بيته، صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم صلى على النبى صلى الله عليه وسلم، ثم قال يا أهل خراسان أنتم شيعتنا وانصار دولتنا، وأهل مودتنا، ولو بايعتم غيرنا لم تبايعوا من هو خير منا، وإن أهل بيتى- من ولد على بن أبى طالب- تركناهم والله الذى لا إله إلا هو والخلافة. فلم نعرض لهم فيها بقليل ولا كثير، فقام فيها على بن أبى طالب فتلطخ وحكم الحكمين، فافترقت عنه الأمة، واختلفت عليه الكلمة، ثم وثبت عليه شيعته وأنصاره وبطانته وثقافته فقتلوه ثم قام من بعده الحسن بن على، فوالله ما كان فيها برجل قد عرضت عليه الأموال فقبلها، فدس إليه معاوية إنى أجعلك ولى عهدى من بعدى، فخدعهم فانسلخ له مما كان فيه وسلمه إليه، فأقبل على النساء يتزوج فى كل يوم واحدة فيطلقها غدا فلم يزل حتى مات على فراشه، ثم قام من بعده الحسين بن على خدعه

---

[1] الجحد الجحد: يحذرهم من الجحود وهو كفران النعم وذلك عن طريق التكرار البليغ.

أهل العراق وأهل الكوفة أهل الشقاق والنفاق والإغراق فى الفتن أهل هذه المدرة السوداء- وأشار إلى أهل الكوفة- فوالله ما هى بحرب فأحاربها، ولا سلم فأسالمها، فرق الله بينى وبينها، فخذلوه وأسلموه حتى قتل ثم قام من بعده زين العابدين بن على، فخدعه أهل الكوفةوغروه فلما أخرجوه واظهروه أسلموه وقد كان أتى محمد بن على فناشده فى الخروج، وسأله ألا يقبل أقاويل أهل الكوفة، وأنا أخاف أن تكون أنت ذلك المصلوب، وناشده عمى داود بن على وحذره غدرأهل الكوفة فلم يقبل، وأتم على خروجه فقتل وصلب بالكناسة ثم وثب علينا بنو أميةفأماتوا أشرافنا وأذهلوا عزنا، والله ما كانت لهم ترة يطلبونها، وما كان ذلك كله إلا فيهم وبسبب خروجهم عليهم فنفونا من البلاد، فصرنا مرة بالطائف ومرة بالشام ومرة بالشراة)).

وبعد أن سرد المنصور فى خطبته الأحداث التاريخية التى يدين فيها أبناء عمومته العلويين، وجه حديثه إلى الخراسانيين، مبينا لهم المكيدة السياسية التى استخدمها للكيد بالعلويين الذين خلعوا بيعته حيث قال مكملاً[1]:

((حتى ابتعثكم الله لنا شيعة وأنصاراً فأحيا شرفنا وعزنا بكم أهل خراسان، ودمغ بحقكم أهل الباطل، وأظهر حقنا، وأصار إلينا ميراثنا عن نبينا صلى الله عليه وسلم، فقر الحق مقره، وأظهر مناره، وأعز أنصاره، وقطع دابر الحق القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين فلما استقرت الأمور فينا على قرارها من فضل الله فيها، وحكمه العادل لنا، وثبوا علينا ظلماً وحسداً منهم وبغيا لما فضلنا الله به عليهم وأكرمنا به من خلافته وميراث نبيه صلى الله عليه وسلم)).

ثم استبد شعور الحماس بهذا الخليفة الجبار، فأردف قائلا مبتدءاً ببيت شعر معبر:

((جهلا علينا وجبنا عن عدوهم لبئست الخلتان الجهل والجبن

فإنى والله يا أهل خراسان، ما أتيت من هذا الأمر ما أتيت بجهالة، بلغنى عنهم بعض السقم والتعرم، وقد دسست لهم رجالاً فقلت قم يا فلان فخذ معك من المال كذا وحذوت لهم مثالاً يعملون عليه، فخرجوا حتى أتوا بالمدينة فدسوا إليهم تلك

---

[1] تاريخ الرسل والملوك ٢٤٨/٩، وكذا ذكرها المسعودى فى تاريخه ٢٨٢/٣.

الأموال، فوالله ما بقى منهم شيخ ولا شاب ولا صغير ولا كبير إلا بايعهم بيعة استحللت بها دماءهم وأموالهم، وحلت لى عند ذلك بنقضهم بيعتى، وطلبهم للفتنة، وإلتماسهم الخروج على، فلا يرون أنى أتيت ذلك على غير يقين)). ثم نزل وهو يتلو على درج المنبر هذه الآية ((وحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ)).

ونلحظ أن أسلوب هذه الخطبة كسابقتها عند سلفه السفاح تستدل بالآيات القرآنية الكريمة التى يجعلونها مقوية لأساليبهم البيانية للتأثير على عقول السامعين وإستمالة عواطفهم، بل زاد عليها هنا أيضا بالشعر والحكمة.

أما بعد أن استقرت أمور الدولة لهذا الخليفة القوى المنصور قام وارتجل خطبة فوز ونصر فى مكة المكرمة وربط فيها الدين بالدنيا، والفخر بالقوة فقال[1]:

((أيها الناس، إنما أنا سلطان الله فى أرضه، أسوسكم بتوفيقه وتسديده وتأييده وحارسه على ماله، أعمل فيه بمشيئته وإرادته، وأعطيه بإذنه، فقد جعلنى الله عليه قفلاً، إذا شاء أن يفتحنى فتحنى لإعطائكم، وقسم أرزاقكم، وإذا شاء أن يقفلنى عليها أقفلنى، فارغبوا إلى الله وسلوه فى هذا اليوم الشريف الذى وهب لكم من فضله ما أعلمكم به فى كتابه إذ يقول: "الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً" أن يوفقنى للرشاد والصواب، وأن يلهمنى الرأفة بكم والإحسان إليكم، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم)).

وواضح ما فى هذه الخطبة من معانى الغلبة والتمكين التى خدمها عمق التصوير الفنى البليغ حيث جعل المنصور نفسه قفلاً على خزائن الله تعالى فى أرضه فهو الذى يفتحه لخلقه أو يغلقه متى شاء وكيف شاء، كما مزجها بالمعانى الدينية حيث طلب من الناس أن يتضرعوا إلى الله تعالى بأن يلهم الخليفة نفسه الرأفة برعيته والإحسان إليهم بل نراه قد استشهد بالآية الكريمة التى ختم بها

---

[1] العقد الفريد: لابن عبد ربه ٩٦/٤، وجمهورة خطب العرب: د. أحمد زكى صفوت ٢٧،٢٨/٣.

الخالق سبحانه دين رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم وكأنما هو يرمز لاستتباب الأمر للدولة العباسية العظيمة.

* * *

ولما شب المهدى أمره أبوه على طبرستان وما والاها، وتأدب وجالس العلماء، وتميز أن أباه عهد إليه. فلما مات بويع بالخلافة، ووصل الخبر إليه ببغداد، فخطب الناس فقال: ((إن أمير المؤمنين عبد دعى فأجاب، وأمر فأطاع ثم اغرورقت عيناه، فقال: وقد بكى رسول الله صلى الله عليه وسلم عند فراق الأحبة، ولقد فارقت عظيماً وقلدت جسيماً، فعند الله احتسب أمير المؤمنين، وبه أستعين على خلافة المسلمين، أيها الناس أسروا مثل ما تعلنون من طاعتنا نهبكم العافية، وتحمدوا العاقبة، واخفضوا جناح الطاعة لمن نشر معدلته فيكم، وطوى الإصر عنكم، وأهال عليكم السلامة من حيث رآه الله مقدماً ذلك، والله لأفنين عمرى بين عقوبتكم والإحسان إليكم)). ثم لما حصلت الخزائن فى يد المهدى أخذ فى رد المظالم، فأخرج أكثر الذخائر ففرقها، وبر أهله ومواليه[1].

ونلاحظ أنه منذ عهد المهدى تأخذ الخطب السياسية منحى آخر، حيث تخف حدتها، ويهدأ روعها، ويسهل لفظها، ويبسط معناها، وما ذلك ليكون كما رأينا فى خطبة المهدى السابقة، لولا استقرار الدولة وضعف أعدائها، رغم اتباع المهدى نهج أسلافه ولكن تبعاً للمتغيرات، فهى تحمل المعانى نفسها ولكن مع فارق الأسلوب.

ورغم استقرار الدولة فى عهد المنصور إلا أن بقيةمن فتن بقيت مشتعلة فى عهد ابنه الخليفة المهدى، حيث شق أهل خراسان عصا الطاعة حين عنف عليهم عمال المهدى، فخرج إلى مجلس خلائه وبعث إلى نفر من لحمته ووزرائه يستنصحهم، فكان ممن حضر المجلس وليا عهد الهادى والرشيد، مع جماعة من موالى الخليفة وأهل بيته، فتكلم كل واحد عارضاً رأيه إما التشدد أو الأخذ باللين والحسنى، فكان الهادى ممن أشار بأن يعنفوا بشدة

---

[1] تاريخ الخلفاء: للسيوطى ص٢٧٢.

لا لين فيها، فقال موسى الهادى[١]:

((أيها المهدى لا تسكن إلى حلاوة ما يجرى من القول على ألسنتهم، وأنت ترى الدماء تسيل من خلل فعلهم، الحال من القوم تنادى بمضمرة شر، وخفية حقد، قد جعلوا المعاذير عليه سترا، واتخذوا العلل من دونها حجاباً رجاء أن يدافعوا الأيام بالتأخير، والأمور بالتطويل، فيكسروا حيل المهدى فيهم، ويثنوا جنوده عنهم، حتى يتلاحم أمرهم، وتتلاحق مادتهم، وتستفحل حربهم، وتستمر الأمور بهم، والمهدى من قولهم فى حال غرة ولباس آمنة قد فتر لها، وأنس بها وأسكن إليها. ولولا ما اجتمعت به قلوبهم، وبردت عليه جلودهم من المناصبة بالقتال، والإضمار للقراع، عن داعية ضلال، أو شيطان فساد، لرهبوا عواقب أحوال الولاة، وغب سكون الأمور، فليشدد المهدى -وفقه الله- أزره لهم، ويكتب كتائبه نحوهم، وليضع الأمر على أشد ما يحضره فيهم، وليوقن أنه لا يعطيهم خطة يريد بها صلاحهم، إلا كانت دربة لفسادهم، وقوة على معصيتهم، وداعية إلى عودتهم وسبباً لفساد من بحضرته من الجنود، ومن ببابه من الوفود، الذين إن أقرهم على تلك العادة وأجراهم على ذلك الأدب، ولا يستقيم به دنيا. وغن طلب تغييره بعد استحكام العادة، وإستمرار الدربة، لم يصل إلى ذلك إلا بالعقوبة المفرطة، والمؤونة الشديدة. والرأى للمهدى -وفقه الله- أن لا يقبل عثرتهم ولا يقبل معذرتهم، حتى تطأهم الجيوش، وتأخذهم السيوف، ويستحر بهم القتل ويحدق بهم الموت، ويحيط بهم البلاء، ويطبق عليهم الذل. فإن فعل المهدى بهم ذلك كان مقطعة لكل عادة سوء فيهم، وهزيمة لكل بادرة شر منهم، واحتمال المهدى مؤونة غزوتهم هذه بضع مؤونة غزوات كثيرة، ونفقات عظيمة)).

واضح من الخطبة السابقة التى ألقاها الخليفة الهادى أمام والده وحاشيته، أنها متحدة المعنى، متضافرة الأهداف، متماسكة الأسلوب، ورغم قسوة مرماها إلا أنها ضجت بالصور الجمالية والإبداع الفنى، كقوله عن الأعداء مبينا مدى كيدهم ومكرهم: ((قد جعلوا المعاذير عليه سترا، واتخذوا العلل من دونهم حجابا))، حيث

---

[١] العقد الفريد: لابن عبد ربه ٢١٨/١.

استخدم الخطيب فن التجسيم لإبراز المعنوى فى سورةالحسى، فالمعـــاذير والعلـــل تحولتا إلى ستر وحجاب لإخفاء سوء النوايا.

كما نراه قد استخدم صوراً بلاغية أخرى لإبراز خطورة العدة الفادحة، مثل قوله: ((فيكروا حيل المهدى فيهم))، فهو يريد أن يوضح لسامعيه أن إمهال هـــؤلاء المتمردين قد يجعلهم يزيدون المهدى حيرة وتردداً فالحيلة لا تتكسر إنما هو رمـــز أراد الهادى إيصاله للخليفة ثم نراه يكثر من نماذج هذه الأمثلة الإبداعية التـــى أراد بها التأكيد على صحة رأيه فى التعجيل بالحرب وقمع شوكتهم مثل عبارة ((حتـــى يتلاحم أمرهم)) ، ((والمهدى فى لباس آمنة))، ((حتى يطبق عليهم الذل)).

كل تلك المظاهر الإسلوبية وغيرها أراد بها الهادى الذى كان حينهـــا وليـــاً لعهد والده المهدى أن يسارعوا بكسر شوكة الثائرين عن طريق خيار القوة الحربية قبل أن تستفحل قوتهم وتتسع ثورتهم بهم سواهم فيتسع الجرح ثم تصـــعب مداواتـــه على الخلافة وذلك حين ختم خطبته بقوله: ((واحتمال المهدى مؤونة غزوتهم هـــذه يضع عمه مؤونة غزوات كثيرة ونفقات عظيمة)). وكأن الهادى بذلك يختم خطبتـــه بموجز لما جاء فيها من تفاصيل، ونتيجة لما جاء فيها من تحذيرات.

ثم خطب أخوه هارون الرشيد فى نفس الموقف أمام هذا الجمع برأى مغاير للجميع يقول فيه بفصاحة قول ودراية لسان وعميق رأى[١]: ((أيهـــا المهـــدى، ان الحرب خدعة، والأعاجم قوى مكرة، وربما اعتدلت الحال بهـــم واتفقـــت الأهـــواء منهم، فكان باطن ما يسرون على ظاهر ما يعلنون، وربما افترقت الحالان، وخالف القلب اللسان فانطوى القلب على محجوبة تبطن واستسر بمدخولة لا تعلن. والطبيب الرفيق بطبه، البصير بأمره، العالم بمقدم[٢] يده وموضع ميسمه[٣] لا يتعجل بالدواء حتى يقع على معرفة الداء.

---

[١] العقد الفريد: لابن عبد ربه ٢١٨/١.

[٢] مقدم يده: أى الموضع الذى يقدم فيه الطبيب يده من المريض.

[٣] الميسم: هو المكواة.

فالرأى للمهدى -وفقه الله- أن يفر[١] باطن أمرهم فى المسنة، ويمخض ظاهر حالهم مخض السقاء، بمتابعة الكتب، ومظاهرة الرسل، وموالات العيون حتى تهتك حجب غيوبهم، وتكشف أغطية أمورهم، فإن انكشفت الحال له وأفضت الأمور به،إلى تغيير حال، أو عادية ضلال، اشتملت الأهواء عليهن وانقاد الرجال إليه، رامتدت الأعناق، بدين يعتقدونه وإثم يستحلونه، عصبهم بشدة لا لين فيها ورماهم بعقوبة لا عفو معها، وإن إنفرجت الغيوم واهتصرت الستور، ورفعت الحجب، والحال فيهم مريعة[٢]، والأمور بهم معتدلة، عن أرزاق يطلبونها[٣] وأعمال ينكرونها، وظلامات يدعونها،وحقوق يسألونها، بماتة سابقتهم، ودالة مناصحتهم، فالرأى للمهدى -وفقه الله- أن يتسع لهم بما طلبوا ويتجافى لهم عما كرهوا، ويشعب من أمرهم ما صدعوا، ويرتق من فتقهم ما فتقوا، ويولى عليهم من أحبوا، ويداوى بذلك مرض قلوبهم وفساد أمورهم، فإنما المهدى وأمته وسواد أهل مملكته بمنزلة الطبيب الرفيق، والوالد الشفيق، والراعى الحدب، الذى يحتال لمرابض غنمه، وضوال رعيته، حتى يبرئ المريضة من داء علتها، ويرد الضالة إلى أنس جماعتها. ثم إن خراسان بخاصة لهم دالة محمولة، وماتة مقبولة ووسيلة معروفة، وحقوق واجبة، لأنهم أيدى دولته، وسيوف دعوته وأنصار حقه، وأعوان عدله، فليس من شأن المهدى الاضطغان عليهم، ولا المؤاخذة لهم، ولا التوعر بهم ولا المكافأة بإساءتهم، لأن مبادرة حسم الأمور ضعيفة قبل أن تقوى، ومحاولة قطع الأصول ضئيلة قبل أن تغلظ أحزم فى الرأى، وأصح فى التدبير، من التأخير لها، والتهاون بها، حتى يلتئم قليلها بكثيرها، وتجتمع أطرافها إلى جمهورها)).

ونلاحظ فى هذا الموقف الامتحانى أن الرشيد الذى امتاز ببلاغة قوية تحدثت عنها كتب التاريخ كثيراً يفوق غيره فى سلامة الرأى وصحة المنطق، وتسلسل الأفكار، والقدرة على الإقناع، وذلك عن طريق التصوير الجمالى المتنوع.

---

[١] يفر: يختبر، حيث يقال: فر الدابة إذا كشف عن أسنانها ليعرف سنها.

[٢] مريعة: أى موفورة الرزق خصيبة.

[٣] عن أرزاق: متعلقة بكلمة: انفرجت.

والحكم الجادة، والتمثيل المقنع، وذلك لكى يوصل رأيه لصاحب الشأن حيث نراه يقول رأياً بغاير رأى أخيه الهادى الذى جنح إلى الشدة والمسارعة إلى استئصال الشأفة.

فهو يبتدئ خطبته بحكمة نبوية عظيمة وهى مقولة: ((إن الحرب خدعة))، ثم يتبعها بقوله: والأعاجم قوم مكرة، وهذه حقيقة كشفتها الأيام والأحداث، وكل ذلك لشد انتباه السامعين والتمهيد ولإقناعهم، ثم يعمد إلى التمثيل والتشبيه إمعاناً فى الإقناع كقوله: ((والطبيب الرفيق بطبه البصير بأمره العالم بمقدم يده وموضع ميسمه لا يتعجل الدواء حتى يقع على معرفة الداء))، حيث أراد أن يكون الخليفة فى موضع الطبيب الحكيم الذى يكشف الداء ثم يشخص الدواء.

ثم نرى الرشيد يكثر من النماذج التشبيهية التى تغلب عليها سيماء البداوة، كقوله ناصحاً: ((فالرأى للمهدى أن يفر باطن أمرهم فر المسنة، ويمخض ظاهر حالهم مخض السقاء)) فهو يأخذ صورة من حياة الأعراب الذين يعرفون عمر البهيمة من أسنانها، ويمخضون السقاء، ونراه يتكئ بكثرة على أمثال تلك الصور التى استقاها من عالم البداوة وكأنه يؤكد اعتزازه بعروبته وهو يود معالجة شأن الأعاجم حيث يشبه الخليفة بالراعى الذى يحتال لمرابض غنمه وضال رعيته، حتى يبرئ المريضة ويرد الضالة.

والرشيد يظهر لنا فى خطبته هذه كبليغ مصقع حتى قبل أن يتولى الخلافة، بل وينال إعجاب والده الذى رجح رأيه الحكيم الذى يأنس إلى التعقل قبل إصدار أى أمر حاسم، وذلك عن طريق اختبار الخصم ثم بالتالى مجازاته إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، مستعينا بمجموعة تصاوير فنية هى الغاية فى الجزالة والقوة، معتمداً فى ذلك على فن التشبيه التمثيلى ليقارب بين أوجه الشبه، ومستمداً كل تلك الصور وسواها من عناصر البادية اللغوية والبصرية.

ولا ينسى الرشيد أن يقنع والده والحاضرين بأمر هو الغاية فى الأهمية وذلك بأن يذكرهم بأن خصومهم اليوم ما هم إلا مناصريهم بالأمس وهم قوم خراسان الذين يستحقون الثواب لا العقاب، وهذا يدل على حكمة هارون الرشيد

فلم يسع والده المهدى بعد أن سمع هذه الخطبة العصماء إلا أن يقول ناقداً ومعجباً: ((ما زال هارون يقع وقع الحيا أى الغيث، حتى خرج خروج القدح مما قال، وانسل انسلال السيف فيما ادعى)). وحسبنا هذا الرأى النقدى الدقيق نختم به خطبته المؤثرة.

وبعد أن استمع والدهما المهدى لرأيهما، ورأى بقية حاشيته ووزرائه على اختلاف آرائهم وتعارضها، وبعد أن طال نقاش المتحاورين الذين استشارهم وأنصت إليهم وقال مخاطباً للجميع[1]:

((الخطب أيسر مما تذهبون إليه، وعلى غير ما تصفون الأمر عليه. نحن -أهل البيت- نجرى من أسباب القضايا، ومواقع الأمور على سابق من العلم، ومحتوم من الأمر، قد أنبأت به الكتب، وتتابعت عليه الرسل، وقد تناهى ذلك بأجمعه إلينا، وتكامل بحذافيره عندنا، فيه ندبر، وعلى الله نتوكل. إنه لابد لولى عهدى، وولى عهدى عقبى من بعدى، ان يقود إلى خراسان البعوث، ويتوجه نحوها الجنود. أما الأول فإنه يقوم إليهم رسله، ويعمل فيهم حيله، ثم يخرج نشطاً إليهم حنقاً عليهم يريد أن لا يدع أحداً من إخوان الفتن، ودواعى البدع، وفرسان الضلال، إلا توطأه بحر القتل، وألبسه قناع القهر، وطوقه طوق الذل، ولا أحد من الذين عملوا فى قص جناح الفتنة، وإخماد نار البدعة، ونصرة ولاة الحق، إلا أجرى عليهم ديم فضله، وجداول بذله، فإذا خرج مزمعاً له مجمعاً عليه، لم يسر إلا قليلاً حتى يأتيه أن قد علمت حيله، وكدحت كتبه، ونفذت مكايده، فهدأت نافرة القلوب، ووقعت طائرة الأهواء، واجتمع عليه المختلفون بالرضا، فيميل نظراً لهم، وبراً بهم، وتعطفاًعليهم، إلى عدو قد أخاف سبيلهم، وقطع طريقهم، ومنع حجاجهم بيت الله الحرام، وسلب تجارهم رزق الله الحلال)).

فهو هنا يأخذ بمجمع هذه الآراء جميعها، حيث يبين أنه يريد أن يكون الحل شاملاً، وله شقين مهمين: أولهما هو إرسال البعوث للحوار والتفاهم، ومكافآة المستحق، متوسلاً بالعديد من الصور الفنية التى تخرج المعنى المراد مثل قوله:

---

[1] العقد الفريد: لابن عبد ربه ٢٢٥/١.

((ولا أحد من الذينعملوا فى قص جناح الفتنة وإخماد نار البدعة إلا أجرى عليهم ديم فضله وجداول بذله))، فلا الفتنة لها جناح ولا البدعة لها نار، وإنما الأمر هو الدعوة إلى السلام لمن أراد، فى ظلال ((التشخيص)) و((التجسيم)) للمعنويات وإخراجها إلى المجال الحسى، لكى يقوى التأثيرعلى المستمعين، وصولاً إلى الغاية التى تظهر فى قوله: ((فهدأت نافرة القلوب، ووقعت طائرة الأهواء))، فهذه صورة فنية بليغة قامت على فن الاستعارة التشخيصية.

ثم ينتقل المهدى بعد ذلك إلى الخيار الآخر وهو خيار القتال إذا كان لابد منه وذلك لرد هؤلاء الثائرين إلى حوزة الخلافةالإسلامية، مستخدماً لغة أقوى ومعانى أشد وصوراً أكثر، وذلك لكى يبث الخوف فى نفوس الضالين حيث يقول مكملاً خطبته[1]:

((وأما الآخر فإنه يوجه إليهم من يعتقد له الحجة عليهم بإعطاء ما يطلبون، وبذل ما يسألون، فإذا سمت الفرق بقرانها له، وجنح أهل النواحى باعناقهم نحوه فأضفت إليه الأفئدة، واجتمعت له الكلمة، وقدمت عليه الوفرد، قصد لأول ناحية بخعت بطاعتها، وألقت بأزمتها، فألبسها جناح نعمته، وأنزلها ظل كرامته وخصها بعظيم حبائه، ثم عم الجماعة بالمعدلة، وتعطف عليهم بالرحمة فلا تبقى فيهم ناحية دانية، ولا فرقة قاصية، إلا دخلت عليها بركته، ووصلت إليها منفعته، فأغنى فقيرها وجبر كسيرها، ورفع وضيعها، وزاد رفيعها، ما خلا ناحيتين: ناحية يغلب عليهم الشقاء، وتستميلهم الأهواء، فتستخف بدعوته، وتبطئ عن إجابته، وتتثاقل عن حقه، فتكون آخر من يبعث، وأبطأ من يوجه، فيضطمر عليها موحدة، ويبتغى لها علة، لا يلبث أن يجدها بحق يلزمهم وأمر يجب عليهم، فتستلحمهم الجيوش، وتأكلهم السيوف، ويستحر فيهم القتل، ويحيط بهم الأسر، ويفنيهم التتبع، حتى يخرب البلاد ويوتم الأولاد، وناحية لا يبسط لهم أماناً، ولا يقبل لهم عهداً، ولا يجعل لهم ذمة، لأنهم أول من فتح باب الفرقة، وتدرع جلباب الفتنة، وربض فى شق العصا، ولكنه يقتل أعلامهم، ويأسر قوادهم،ويطلب هرابهم، فى لجج البحار وقلل الجبال، وخمر

---

[1] العقد الفريد: لابن عبد ربه ٢٢٥/١.

الأودية، وبطون الأرض، تقتيلا وتغليلاً وتنكيلاً، حتى يدع الديار خراباً، والنساء أيامى، وهذا أمر لا نعرف له فى كتبنا وقتاً، ولا نصحح سنه غير ما قلنا تفسيراً.

وأما موسى ولى عهدى، فهذا أوان توجهه إلى خراسان وحلوله بحر جان، وما قضى الله له من الشخوص إليها، والمقام فيها، خير للمسلمين مغبة، وله بإذن الله عاقبة من المقام بحيث يغمر فى لجج بحورنا، ومدافع سيولنا، ومجامع أمواجنا، فيتصاغر عظيم فضله، ويتذأب مشرق نوره، وستقلل كثير ما هو كائن منه)).

يرى المهدى أنه حتى فى حال اختيار خيار الحرب والشدة لابد من تأليف قلوب المعتدلين من المناوئين لكى لا يتسع الخرق على الراقع، متكئاً فى إبراز هذه الفكرة الثاقبة على العديد من الصور البيانية الأخاذة مثل قوله عن الفرق المطيعة وكيفية وجوب تعامل قادته معها: ((فألبسها جناح نعمته، وأنزلها ظل كرامته))، موغلاً فى التصوير لإحداث عمق التأثير.

ولا سيما أن التشخيص والتجسيم من الأهداف البلاغية التى برزت فى الأدب العباسى متأثرة ببلاغة القرآن الكريم أولاً، ثم بالمنطق والفلسفة اليونانيين وقد اشتهر بهما الشاعر الكبير أبو تمام[1]. ولكن الذى يبدو لنا هنا أن فصحاء خلفاء بنى العباس قد سبقوه فى هذا المضمار، لأنه ظهر فى العصر العباسى الثانى، وقد يكون السبب فى ذلك إكثار أبى تمام من هذا الأمر كثرة مفرطة جعلته يشتهر بها، إضافة إلى أن الخلفاء العباسيين كان الظاهر الملموس عنهم البروز السياسى الذى فاق بروزهم الأدبى.

ولم تكن الاستعارة المقترنة بفن التشخيص والتجسيم هى الفن الوحيد الذى ظهر فى هذه الخطبة القديرة للمهدى وابنيه وليا العهد الهادى والرشيد، إنما ظهرت إضافة للفنون البيانية فنوناً بديعية، مثل قوله فى مضمار تأليف قلوب المعتدلين من الأعداء: ((فأغنى فقيرها، وجبر كسيرها، ورفع وضيعها)) حيث استخدم أسلوب الطباق المتتابع لإثبات الانتقال بعد الصلح من حال إلى حال.

---

[1] انظر: الفن ومذاهبه فى الشعر العربى: د. شوقى ضيف ص٢٣٥.

هذا فى مجال الوعد أما فى مجال الوعيد، فقد قال عن مطاردة المتمـردين المتشددين أن يقتل أعلامهم، ويأسر قوادهم، ويطلب هرابهم فى لجج البحار، وقلـل الجبال، وخمر الأودية وبطون الأرض، كناية عن الدقة فى مطاردة هؤلاء والبحـث عنهم فى كل مكان، موضحاً أن العلة فى ذلك كونهم ((أول من فتح بـاب الفرقـة، وتدرع جلباب الفتنة))، ولعل كثرة التجسيم المعنوى فى خطبة المهدى وابنيه الهادى والرشيد سببها رغبتهم فى إعطاء الحقائق الخطيرة مستواها المستحقة له سواء فـى تصوير الجرم أم فى تصوير العقاب، حيث ترى المهدى يختتم خطبته كمـا بـدأها متدرعاً بدروع ((الاستعارة التجسيمية)) التى جعلت للفتنة باباً يفتح وللفتنـة جلبابـاً يرتدى ويتدره به ضد الخلافة.

وعلى وجه العموم: فإن هذه الخطب الثلاثة لهؤلاء الخلفاء الثلاثة، تكشـف لنا عدة أمور مهمة لعل أبرزها، هو المستوى العالى الذى وصـلت إليـه الخطابـة السياسية العباسية، لا سيما فى هذه الخطب الأخيرة ولعل السبب يعود إلـى كونهـا دارت بين مجموعة من البلغاء المحنكين فـى مجـال السياسـة، فأضـحت أشـبه بالمبارزة الفكرية والبلاغية رغب كل واحد من هؤلاء الأدباء الفصحاء أن يكسـب قصب التفوق فى هذا المضمار، إضافة لخطورة الوضع لا سيما بعد ألفـة الجميـع لاستقرار الخلافة العباسية، كما تكشف لنا هذه الخطب تمكن هؤلاء الخلفاء الثلاثـة من امتلاك ناصية القول البليغ المتفوق الذى لا ينكره جاحد.

وحين هبت عواصف فتنة الأخوين الأمين والمأمون رأينا فن الخطابة يظهر لنا نتائجها الخطيرة ولكن فى غير إكثار أو إطالة، حيث نجد فى هذا الصدد خطبـة واحدة للأمين وخطبة أخرى للمأمون، بسبب انشغال الإثنين فى تلك الفتنة التى لـم يكن لها أنصار ولا مشايعين لأن الأخوين كانا من منبع عائلى واحد لم يكن ليوافـق على تلك الفرقة الأليمة.

أما الخطبة السياسية اليتيمة للأمين فقد قالها حينما أحس بقرب نهايته ورأى الأمر قد تولى عنه، وأنصاره يتسللون فيخرجون إلى عدوه طاهر بن الحسين قائـد

جند المأمون، فقعد فى الجناح الذى كان عمله على باب الذهب، وأمر بإحضار كل من كان معه من القواد والجند، فجمعوا فى الرحبة حيث أشرف عليهم وقال[١]:

((الحمد لله الذى يرفع ويضع، ويعطى ويمنع، ويقبض ويبسط، وإليه المصير. أحمده على نوائب الزمان، وخذلان الأعوان، وتشتيت الرجال، وذهاب الأموال، وحلول النوائب، وتوقد المصائب، حمداً يدخر لى به أجزل الجزاء ويرفدنى أحسن العزاء وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له كما شهد لنفسه وشهدت له ملائكته وأن محمداً عبده الأمين، ورسوله إلى المسلمين، صلى الله عليه وسلم، آمين رب العالمين.

أما بعد، يا معشر الأبناء، وأهل السبق إلى الهدى، فقد علمتم غفلتى كانت أيام الفضل بن الربيع وزير على ومشير، فمادت به الأيام بما لزمنى به من الندامة فى الخاصة والعامة: إلى أن نبهتمونى فانتبهت، واستعنتمونى فى جميع ما كرهتم من نفسى وفيكم، فبذلت لكم ما حواه ملكى، ونالته مقدرتى مما جمعته وورثته عن آبائى، فقودت من لم يجز، واستكفيت من لم يكف، واجتهدت، -علم الله- فى طلب رضاكم بكل ما قدرت عليه، واجتهدتم -علم الله- فى مساءتى فى كل ما قدرتم عليه. من ذلك توجيهى إليكم على بن عيسى شيخكم وكبيركم وأهل الرأفة بكم والتحنن عليكم، فكان منكم ما بطول ذكره، فغفرت الذنب، وأحسنت واحتملت، وعزبت نفسى عند معرفتى بشرود الظفر، وحرصى على مقامكم مسلحة، بحلوان مع ابن كبير صاحب دعوتكم، ومن على يدى أبيه كان فخركم، وبه تمت طاعتكم: عبد الله بن حميد بن قحطبة، فصرتم من التألب عليه إلى مالا طاقة له به، ولا صبر عليه يقودكم رجل منكم وأنتم عشرون ألفاً، إلى عامدين وعلى سيدكم متوثبين مع سعيد الفرد، سامعين له مطيعين، ثم وثبتم مع الحسن على، فخلعتمونى وشتمتمونى، وأنتهبتونى وحدتمونى، وقيدتمونى وأشياء منعتمونى من ذكرها، حقد تلوبكم وتلكؤ طاعتكم أكبر وأكثر. فالحمد لله حمد من أسلم لأمره، ورضى بقدره. والسلام)).

---

[١] تاريخ الطبرى ١٠/٢١٧.

فنلاحظ فى هذه الخطبة التى يسودها الحزن المخيم على جميع ألفاظهـا أن الأمين يخطب خطبة مودع، يقر فيها بلوم الأتباع والأنصار الذين خذلوه فى السـلم والحرب معا، ففى السلم لم يوضحوا له حجم الخطر المحدق به، أما فـى الحـرب فتساقطوا كما حبات العقد مولين الأدبار رغم إحسانه المتتابع إليهم، فلم يبق أمامـه إلا التسليم بالقضاء والقدر مهما كان فادحاً فلات حين مندم.

أما المأمون فكان معروفا بالفصاحة والجهارة وحلاوة اللفظ وجودة اللهجـة كما وصفه سهل بن هارون مطنبا فى مدح أسلوبه[١]. لذا نجده مكثراً من الخطـب وخصوصاً ان عهده كان عهد نماء للفكر والثقافة وتقريب للأدب والأدباء، ولكن لا نجد له إلا خطبة سياسية واحدة فى فتنة الأخوين، تدور حول حمده لله تعالى الـذى نصره على أخيه الأمين وكان فى خراسان، حيث قال اليعقوبى فى تاريخه[٢]:

((حينما هنئ المأمون بالخلافة، صعد المنبر، فحمد الله وأثنى وصلى على محمد، ثم قال: (أيها الناس إنى جعلت الله على نفسى إن اسـترعانى أمـوركم، أن أطيعه فيكم، ولا أسفك دما عمداً لا تحله حدوده، وتسفكه فرائضه، ولا آخـذ لأحـد مالاً ولا أثاثاً، ولا نحله تحرم على، ولا أحكم بهواى فى غضبى، ولا رضاى إلا ما كان فى الله له.

جعلت ذلك كله عهداً مؤكداً. وميثاقاً مشدداً. إنى أفى رغبة فى زيادته إياى فى نعمى، ورهبة من مسألتى إياى عن حقه وخلفه. فإن غيرت أو بدلت كنت للعبر مستأهلاً، وللنكال متعرضاً. وأعوذ بالله من سخطه وأرغب إليه فى المعونـة علـى طاعته، وأن يحول بينى وبين معصيته)).

وتبدو هذه الخطبة الموجزة وكأن المأمون يقسم قسم الولاء لخالقه سـبحانه، ثم لرعيته التى استرعاه عليها، فهو يؤمنهم على دمائهم واموالهم، فى سـهولة لفـظ وقرب معان ليست كسابقتها من الخطب، فقد كفى الله المؤمنين شر استمرار القتال، واستقرت الأحوال للمأمون ورعيته. ولكن شتان بين الخطبتين، حيث يتضـح لنـا

---

[١] البيان والتبيين للجاحظ: ٩١/١.

[٢] تاريخ اليعقوبى ٤٣٨/٢.

الفرق بين لغة المنتصر ولغة المهزوم فى كل شئ، فنغمة الفرح فى خطبة المأمون تختلف تماماً عن نغمة الأسى والندم فى خطبة أخيه الأمين حيث كانت خطبة النهاية، بينما هذه هى خطبة البداية، وكذا فإن شعور الحزن والتمزق لدى الأول يغاير عاطفة الزهو والخيلاء لدى الآخر، فهل ظلام الليل الحالك كنور الفجر المشع؟

ثانياً: الخطابة الدينية:

ثم ظهر نوع آخر من الخطب عند الخلفاء العباسيين بعد أن استقرت لهم الأمور وانضبطت لهم مقاعد الحكم، وهى (الخطب الدينية) التى كانت وما زالت منتعشة منذ ظهور الإسلام الحنيف على يدى محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، ثم خلفائه الراشدين المهديين، وهكذا حتى عهد بنى العباس الذين انشغلوا بالخطابة السياسية التى تعينهم على ضبط الأمور، إلى أن عادت الأمور إلى نصابها فصاروا يخطبون فى رعيتهم خطباً دينية خصوصاً فى المواسم الإسلامية كالجمع والأعياد والحج، لأن الخليفة ما هو إلا أمير المؤمنين وقدوتهم كما كان ذلك منذ فجر الإسلام الوضئ حتى الآن.

وأول ما نجدها فى أخريات عهد الخليفة المنصور بعد أن استقرت له الأوضاع السياسية حيث خطب يوم الجمعة فحمد الله وأثنى عليه وقال: ((أيها الناس اتقوا الله. فقام إليه رجل فقال: أذكرك من ذكرتنا به يا أمير المؤمنين، قال أبو جعفر: سمعاً سمعاً لمن فهم عن الله وذكر به، وأعوذ بالله أن أذكر به وأنساه، فتأخذنى العزة بالأثم، لقد ضللت إذاً، وما أنا من المهتدين، وأما أنت والتفت إلى الرجل، فقال: والله ما الله أردت بها، ولكن ليقال قام فقال فعوقب فصبر، وأهون بها لو كانت العقوبة، وأنا أنذركم أيها الناس أختها، فإن الموعظة علينا نزلت، وفينا أنبتت. ثم رجع إلى موضعه من الخطبة. فكأنما يقرأ من قرطاس))[1].

وهذه صورة تدلنا على مقدار تملك المنصور لناصية القول، وتمكنه من ملكة البيان، وتحكمه فى فكره، فلا تستطيع أن تند عنه شاردة، أو تغيب عنه واردة،

---

[1] العقد الفريد: لابن عبد ربه ٩٦/٤.

لأن المقاطع المعترض لم يعكر عليه صفوه ولم يشوش عليه عقله، ولم يذهب بوعيه وصوابه كما هو الشأن فى الخطيب الهزيل، أو المتكلم العيى، أو القائل الذى لم تتكامل له الموهبة ولم يتعود أن يخوض غمرات الخطابة فى جماهير الناس، وهكذا كان خلفاء هذه الفترة من التاريخ، والحقبة من عمر الخلافة وما من واحد منهم إلا وكان له سبق فى ميدانها ويد طولى على لسانها وحسن بيانها[١].

ثم تبعه خليفته المهدى الذى ذكرت له المصادر التاريخية والأدبية خطبة دينية عصماء ألقاها فى إحدى الجمع، وكان طابعها إسلامياً متميزاً حوى كثيراً من الأوامر والنواهى التى ذكرها كتاب الله الكريم وفصلتها سنة نبيه صلى الله عليه وسلم يقول فيها[٢]:

((الحمد لله الذى ارتضى الحمد لنفسه، ورضى به من خلقه، أحمده على آلائه وأمجده لبلائه، وأستعينه وأومن به وأتوكل عليه، توكل راض بقضائه، وصابر لبلائه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده المصطفى، ونبيه المجتبى، ورسوله على خلقه، وأمينه على وحيه، أرسله بعد إنقطاع الرجاء، وطموس العلم، وإقتراب من الساعة، إلى أمة جاهلية، مختلفة أمية، أهل عداوة وتضاغن، وفرقة وتباين، وقد استهوتهم شياطينهم، وغلب عليهم قرناؤهم، فاستشعروا الردى، وسلكوا العمى، يبشر من اطاعه بالجنة وكريم ثوابها، وينذر من عصاه بالنار وأليم عقابها، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حيى عن بينة، وإن الله لسميع عليم، أوصيكم عباد الله بتقوى الله، فإن الاقتصار عليها سلامة، والترك لها ندامة، وأحثكم على إجلال عظمته، وتوفير كبريائه وقدرته، والانتهاء إلى ما يقرب من رحمته، وينجى من سخطه، وينال به ما لديه من كريم الثواب، وجزيل المآب، فاجتنبوا ما خرفكم الله من شديد العقاب وأليم العذاب، ووعيد الحساب، يوم توقفون بين يدى الجبار، وتعرضون فيه على النار "يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ"، "يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ

---

[١] انظر: تاريخ الأدب العربى: إبراهيم أبو خشب ص ٨٦.

[٢] العقد النريد: ابن عبد ربه ٩٨/٤.

وبنيه لكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ"، "يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلا يُقْبَلُ مِنْها عدْلٌ وَلا تَنْفَعُها شَفَاعَةٌ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ"، "يَوْماً لا يَجْزِي والِدٌ عنْ وَلَدِهِ وَلا مولُودٌ هُوَ جازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئاً)).

نستشف من هذه الخطبة الدينية للمهدى أنها لم تتعرض للجانب السياسي مطلقاً بل اختصت بتناول الأسس الدينية من ثناء على رسول الهدى صلى الله عليه وسلم دعوة إلى تقوى الله عزوجل واجتناب إسخاطه، والتخويف من هول يوم القيامة يوم الحساب، والجزاء على ما اقترفته يدا العبد، مدغماً كل ذلك بأسلوب غاية فى الفصاحة والجزالة، ومستشهداً بالآيات الكريمات المتلائمة مع الموقف الخطابى.

ثم يستمر الخليفة المهدى على هذا المنوال متعرضاً لجوانب توعوية أخرى، حيث يردف قائلاً فى نفس الخطبة[١]:

((عباد الله: "وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ"، فإن الدنيا دار غرور وبلاء وشرور، واضمحلال وزوال، وتقلب وانتقال، قد أفنت من كان قبلكم، وهى عائدة عليكم وعلى من بعدكم، من ركن إليها صرعته، ومن وثق بها خانته، ومن أملها كذبته، والشقى فيها من آثرها، والمغبون فيها من باع حظه من دار آخرته بها فالله الله عباد الله، والتوبة مقبولة، والرحمة مبسوطة، وبادروا بالأعمال الزاكية فى هذه الأيام الخالية، قبل أن يؤخذ بالكظم[٢] وتندموا فلا تقالون[٣] بالندم، فى يوم حسرة وتأسف، وكآبة وتلهف، يوم ليس كالأيام، وموقف ضنك المقام، إن أحسن الحديث وأبلغ الموعظة كتاب الله، يقول الله تبارك وتعالى: "وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ". وأعوذ بالله العظيم من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم: "أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ " إلى

---

[١] العقد الفريد: ابن عبد ربه ٩٨/٤.

[٢] الكظم: هو إغلاق الحلق أو الفم أو مخرج النفس.

[٣] لا تقالون: أى: لا تتركون.

آخر السورة، أوصيكم عباد الله بما أوصاكم الله به، وأنهاكم عما نهاكم الله عنه، وأرضى لكم طاعة الله، وأستغفر الله لى ولكم)).

فى هذا الشق من الخطبة نرى المهدى يحذر من دار الغرور بأسلوب زاخر بانواع البديع وبزخرف اللفظى من جناس وطباق وسجع وازدواج لكى يصل تأثيره إلى قلوب الناس وعقولهم. كما يدبج قوله بديباجة البيان الرائع من البرهان فى تخويفه من أهوال اليوم الآخر الذىلا رجعة بعده، وذلك بأسلوب سهل ميسر ميسور لا يعسر على فهم السامع أو القارئ.

كما أسند عن الأصمعى أنه قال: ((سمعت المهدى على منبر البصرة يقول: إن الله أمركم بأمر بدأ فيه بنفسه وثنى بملائكته فقال: "إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ "، الآية، آثره بها بين الرسل إذ خصكم بها من بين الأمم. فكان المهدى أول من قال ذلك فى الخطبة، وقد استسنها الخطباء إلى اليوم))[١]. فكانت هذه خاصية أسلوبية تميز بها المهدى حيث كان له قصب السبق فى تلك السنة المباركة أثناء خطبه.

أما هارون الرشيد فكان ذو ثقافة واسعة، حصلها من طبيعة له محبة للإستطلاع، راغبة فى المعرفة، ميالة إلى التفوق، وساعده على التحصيل أساتذة له، هم كبار أئمة اللغة والأدب، ثم تربيته مع البرامكة وهم بيت أدب وثقافة وفكر وطموح وكانوا غاية فى الفصاحة وآية فى البلاغة[٢]. لذا فقد نهج نهج أسلافه من الخلفاء العباسيين فى إلقاء الخطب الدينية فى مواسمها مبتدءا بآى الذكر الحكيم متناولاً نفس الأسس التى تناولها سابقوه أمثال المنصور والمهدى وغيرهما، حيث تقول خطبة هارون الرشيد[٣]:

((الحمد لله نحمده على نعمه، ونستعينه على طاعته، ونستنصر على أعدائه ونؤمن به حقا، ونتوكل عليه مفوضين إليه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا

---

[١] تاريخ الخلفاء: السيوطى ص ٢٧٧.

[٢] انظر: ديوان هارن الرشيد: د. سعدى ضناى ص٥.

[٣] العقد الفريد: ابن عبد ربه ٤/٩٩.

شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، بعثه على فترة من الرسل، ودورس من العلم، وإدبار من الدنيا، وإقبال من الآخرة، بشيراً بالنعيم المقيم، ونذيراً بين يدى عذاب أليم، فبلغ الرسالة، ونصح الأمة، وجاهد فى الله، فأدى عن الله وعده ووعيده، حتى أتاه اليقين، فعلى النبى من الله صلاة ورحمة وسلام، أوصيكم عباد الله بتقوى الله، تكفير السيئات وتضعيف الحسنات، وفوزاً بالجنة، ونباة من النار، وأحذركم يوماً تشخص فيه الأبصار، وتبلى فيه الأسرار، يوم البعث ويوم التغابن ويوم التلاق ويوم التناد، يوم لا يستعتب من سيئة ولا يزداد فى حسنة، يوم الأزفة، إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين، ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع، يعلم فيه خائنة الأعين وما تخفى الصدور، واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كا نفس بما كسبت وهم لا يظلمون)).

وواضح أن هذه الخطبة صورة من البيان الرائع، والوعظ النافع، والإيمان الخاص، والبلاغة القوية، والأدب الجم، والفكر الناضج، والعقل السليم، والخطابة المؤثرة، والأسلوب الحكيم والبديهة المطاوعة والسلامة الواضحة التى لا يحسنها إلا رجل رضع أفاويق العربية وطعم لبن الفصاحة[١].

فهو يأمرهم بتقوى الخالق ويحذرهم من يوم التناد ويذكرهم بأهواله، بأساليب فصيحة وعبارات بليغة،ويسترسل فى أساليب تحذيرية مخوفاً من الحقيقة الرهيبة التى لا مناص عنها وهى الموت حيث يقول مكملاً خطبته[٢]:

((عباد الله إنكم لم تخلقوا عبثاً، ولن تتركوا سدى، حصنوا إيمانكم بالأمانة، ودينكم بالورع، وصلاتكم بالزكاة، فقد جاء فى الخبر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له، ولا صلاة لمن لا زكاة له، إنكم سفر مجتازون، وأنتم عن قريب تنتقلون من دار فناء إلى دار بقاء، فسارعوا إلى المغفرة بالتوبة، وإلى الرحمة بالتقوى، وإلى الهدى بالانابة، فإن الله تعالى ذكره أوجب رحمته للمتقين، ومغفرته للتائبين. وهداه للمنيبين. قال الله عزوجل وقوله

---

[١] انظر: تاريخ الأدب العربى: إبراهيم أبو خسب ص ٢٤٠.

[٢] العقد الفريد: لابن عبد ربه – ص ٤/١٠٠.

الحق: "وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ " وقال: "وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى". وإياكم والأمانى، فقد غرت وأردت وأوبقت كثيراً، حتى أكذبتهم مناياهم، فتناوشوا التوبة من مكان بعيد، وحيل بينهم وبين ما يشتهون، فأخبركم ربكم عن المثلات فيهم، وصرف الآيات، وضرب الأمثال، فرغب بالوعد، وقدم إليكم الوعيد، وقد رأيتم وقائعه بالقرون الخوالى جيلاً فجيلاً، وعهدتم الآباء والأبناء والأحبة والعشائر باختطاف الموت إياهم من بيوتكم ومن بين أظهركم، لا تدفعون عنهم ولا تحولون دونهم، فزالت عنهم الدنيا، وانقطعت بهم الأسباب، فأسلمتهم إلى أعمالهم عند المواقف والحساب والعقاب، ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى. إن أحسن الحديث وأبلغ الموعظة كتاب الله، يقول الله عزوجل: "وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُون". أعوذ بالله العظيم من الشيطان الرجيم، إنه هو السميع العليم. بسم الله الرحمن الرحيم " قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، اللَّهُ الصَّمَدُ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ ". آمركم بما أمركم الله به، وأنهاكم عما نهاكم الله عنه، وأستغفر الله لى ولكم))

والأمر المميز فى هذه الخطبة، أنها كونها خطبة دينية، بيد أنها فيها دعوة سياسية بينة حينما قال: ((لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له)). مستعيناً بحديث شريف، فهو يحثهم بأسلوب غير مباشر على الولاء لولى أمر المسلمين، والخطبة كسابقتها تكثر من الاستدلال بالآيات الكريمات، وهى وعظ وإرشاد بأسلوب مباشر لا يخلو من بلاغة إلا أنها بلاغة السهل الممتنع.

أما الخليفة المأمون فقد كان أكثر الخلفاء العباسيين خطباً دينية، أى أن الخطابة الدينية ظلت مزدهرة حتى نهاية عهده، ونعنى ها خطابة الخلفاء التى ينشئونها او يرتجلونها، وهذا يخالف راى من قال بأن الرشيد قد استن سنة كانت سبباً فى أن تضعف هذه الخطابة على ألسنة الخلفاء إذ طلب الرشيد أن تكتب خطبة الجمعة للأمين والمأمون، وبذلك سن للخلفاء أن يخطبوا بكلام غيرهم[١].

---

[١] انظر: العصر العباسى الأول: د. شوقى ضيف ص ٤٥٢.

لأن هذا الأمر قد يكون بداية شباب المأمون على سبيل التدريب والتعليم له، ولكن بعد أن استوى عوده رأيناه خطيباً مفوهاً مثل والده وأجداده وأعمامه. بل (ظلت للخطابة الدينية أو التوجيهية حظوتها فى غير مجالها الرسمى للتوجيه العالى من الخليفة، أو الواعظ النافع من المرشد، أو التهديد الرادع من الوالى، أو الحث الدينى الباعث من القائد، حيث كانت على القائل ولا متأبية على الخطيب بل قد يرتجلها من غير تحضير سابق، ولا روية متقدمة)[١].

وأول ما نجد للمأمون: خطبة ألقاها يوم الجمعة لا تقل فصاحة ولا بلاغة عن خطب سابقيه الدينية، ولعل أبرز معانيها الدعوة إلى تقوى الله تعالى ووجوب الاستعداد الحق للموت، وعدم طاعة الشيطان فى تسويف التوبة النصوح، كل تلك المعانى قالها فى قوالب أسلوبية رائعة تحمل كل ألوان البيان وشتى أنواع البديع مما لا يخفى على مطلع أو سامع حيث يقول خطيباً[٢]:

((الحمد لله مستخلص الحمد لنفسه، ومستوجبه على خلقه، أحمده وأستعينه وأؤمن به وأتوكل عليه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، أوصيكم عباد الله ونفسى بتقوى الله وحده، والعمل لما عنده، والتنجز لوعده، والخوف لوعيده، فإنه لا يسلم إلا من اتقاه ورجاه وعمل له وأرضاه، فاتقوا الله عباد الله، وبادروا آجالكم بأعمالكم، وابتاعوا ما يبقى بما يزول عنكم ويفنى، وترحلوا عن الدنيا، فقد جد بكم، واستعدوا للموت فقد أظلكم، وكونوا مقوم صيح فيهم فانتبهوا، وأعلموا أن الدنيا ليست لهم بدار فاستبدلوا، فإن الله عزوجل لم يخلقكم عبثاً، ولم يترككم سدى، وما بين أحدكم وبين الجنة والنار إلا الموت أن ينزل به، وإن غاية تنقصها اللحظة، وتهدمها الساعة الواحدة، لجديرة بقصر المدة، وإن غاية يحدوه الجديدان الليل والنهار، لجدير بسرعة الأوبة، وإن قادماً يحل بالفوز أو بالشقوة لمستحق لأفضل العدة، فاتقى عبد ربه، ونصح نفسه، وقد توبته

---

[١] تاريخ الأدب العربى: د، إبراهيم أبو خشب ص٨٩.

[٢] العقد الفريد: لابن عبد ربه – ٤/١٠٠، وعيون الأخبار: لابن قتيبة الدينورى ٢/٢٥٣.

وغلب شهوته، فإن أجله مستور عنه، وأمله خادع له، والشيطان موكل به، يزين له المعصية ليركبها، ويمنيه التوبة ليسوفها، حتى تهجم عليه منيته، اغفل ما يكون عنها. فيا لها حسرة على كل ذى غفلة، أن يكون عمره عليه حجة، أو تؤديه منيته إلى شقوة. نسأل الله أن يجعلنا وإياكم ممن لا تبطره نعمة، ولا تقصر به طاعة ربه غفلة، ولا تحل به بعد الموت فزعة، إنه سميع الدعاء، بيده الخير وهو على كل شئ قدير، فعال لما يريد)).

كما نجد للمأمون خطبة دينية أخرى على هذا المنوال من حيث الألفاظ والمعانى التى تحمل الطابع الاسلامى بيد أنها تحوى مضامين توعوية تخص موسم الحج الأكبر، يعلم الناس فيهابما علمهم نبيهم صلى الله عليه وسلم من أمور دينهم، مستشهداً بكتاب الله تعالى فى الذى يخص هذا الموسم العظيم. حيث قال بعد التكبير والتمجيد[1]: ((إن يومكم هذا أبان الله فضله، وأوجب تشريفه وعظم حرمته، ووفق له من خلقه صفوته، وابتلى فيه خليله. وفدى فيه بالذبح العظيم نبيه، وجعله خاتم الأيام المعلومات من العشر، ومقدم الأيام المعدودات من النفر، يوم حرام من أيام عظام، فى شهر حرام، يوم الحج الأكبر يوم دعا الله فيه إلى مشهده، ونزل القرآن العظيم بتعظيمه، قال الله عزوجل: "وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ"، فتقربوا إلى الله هذا اليوم بذبائحكم، وعظموا شعائر الله واجعلوها من طيب أموالكم، وبصحة التقوى من قلوبكم، فإنه يقول: " لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ " ثم التكبير والتحميد. والصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم والوصية بالتقوى ثم ذكرت الموت ثم قال: وما من بعده إلا الجنة أو النار، عظم قدر الدارين وارتفع جزاء العلمين، وطالت مدة الفريقين. الله الله، فوالله إنه الجد لا اللعب، والحق لا الكذب، وما هو إلا الموت والبعث والميزان والحساب والصراط والقصاص والثواب والعقاب، فمن نجا يومئذ فقد فاز، ومن هوى يومئذ فقد خاب، والخير كله فى الجنة، والشر كله فى النار)).

---

[1] عيون الأخبار: لابن قتيبه ٢/٢٥٤، والعقد الفريد: لابن عبد ربه ٤/١٠١.

وتستمر خطب المأمون حسب استقرار الملك فى عهده، وتبعاً للتطور الثقافى والنمو الفكرى الذى كان إبان ذلك العصر أرضاً خصبة لظهور جميع أنواع الإبداع وأجناس الأدب، حيث نجد له خطبة دينية مطولة بمناسبة عيد الفطر المبارك لا تحدو عن المسار الذى سنه الخلفاء العباسيون مقتدين فى ذلك بسنة نبيهم صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين، مبينا فيه أهمية هذا اليوم حيث أنه نهاية موسم عظيم وبداية موسم آخر أشد قدسية، فهو إعلان نهاية صوم شهر رمضان المبارك وبداية موسم الحج الأعظم.

كما نلاحظ أن هذه الخطبة تبين لنا مدى ثقافة المأمون الدينية فهو كان من رواة أحاديث رسول الله عليه أفضل الصلوات والتسليم ويستدل بها فى بعض خطبه[١]، كما نراه هنا يكثر من الاستدلال بالآيات القرآنية الكريمة، إضافة إلى إسهابه القول البليغ مما يدل على وجود فسحة الوقت واستقرار الأحوال حيث قال بعد التحميد والتكبير المعهودين[٢]: ((ألا وإن يومكم هذا يوم عيد وسنة، وابتهال ورغبة، يوم ختم الله به صيام شهر رمضان، وافتتح به حج بيته الحرام، فجعله أول أيام شهور الحج، وجعله معقباً لمفروض صيامكم ومتقل قيامكم، أحل الله لكم فيه الطعام، وحرم عليكم فيه الصيام، فاطلبوا إلى الله حوائجكم واستغفروه لتفريطكم، فإنه يقال" لا كثير مع ندم واستغفار، ولا قليل مع تمام وإصرار، ثم كبر وحمد، وذكر النبى صلى الله عليه وسلم، وأوصى بالبر والتقوى، ثم قال: اتقوا الله عباد الله، وبادروا الأمر الذى اعتدل فيه يقينكم ولم يحضر الشك فيه أحد منكم، وهو الموت المكتوب عليكم، فإنه لا تستقال بعده عثرة، ولا تحظر قبله توبة، واعلموا أنه لا شئ قبله إلا دونه، ولا شئ بعده إلا فوقه، ولا يعين على جزعه وعلزه[٣] وكربه وعلى القبر وظلمته وضيقه ووحشته، وهول مطلعه، ومسألة ملكيه، إلا العمل الصالح الذى أمر الله به: فمن زلت عند الموت قدمه، فقد ظهرت ندامته، وفاتته

---

[١] تاريخ الخلفاء: للسيوطى – ص ٣٢٩ -- ٣٣٢.

[٢] العقد الفريد: لابن عبد ربه ١٠٢/٤. وعيون الأخبار: لابن قتيبة الدينورى ٣٥٥/٢.

[٣] علزه: أى الذى يصيبه عند الموت من شدة ورعدة.

استقالته، ودعا من الرجعة إلى ما لا يجاب إليه، بذل من الفدية، مالا يقبل منه، فالله الله عباد الله. كونوا قرماً سألوا الرجعة فاعطوها إذ منعها الذين طلبوها، فإنه ليس بتمنى المتقدمون قبلكم إلا هذا الأجل المبسوط لكم، فاحذروا ما حذركم الله، واتقوا اليوم الذى يجمعكم فيه الله لوضع موازينكم، ونشر صحفكم الحافظة لما عليه وله، ألا فقد حكى الله لكم ما قال المفرطون عندها إذ طال إعراضهم عنها، قال جل ذكره: "ووُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عمِلُوا حَاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً ". وقال "وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ". ولست أنهاكم عن الدنيا باكثر مما نهتكم به الدنيا عن نفسها فإن كل ما بها يحذر منها، وينهى عنها، وكل ما فيها يدعو إلى غيرها، وأعظم مما رأته أعينكم من فجائعها وزوالها ذم كتاب الله لها والنهى عنها، فإنه يقول تبارك وتعالى: " فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ ". وقال: "اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلادِ"، فانتفعوا بمعرفتكم بها. وبإخبار الله عنها، واعلموا أن قوما من عباد الله أدركتهم عصمة الله فحذروا مصارعها، وجانبوا خدائعها، وآثروا طاعة الله فيه، وأدركوا الجنة بما يتركون منها)).

ولم تكن هذه الخطب الدينية الثلاث هى التى قالها المأمون فحسب، ولكنها هى التى تمثل المناسبات الدينية العظيمة التى أوجب فيها الإسلام الحنيف الخطبة، لحكمة بالغة تعيد تذكير المسلمين بامور دينهم وطاعة خالقهم والاستعدادلآخرتهم، ارتقى فيها المأمون سلم الخطابة الرفيع الذى يعد أحد أهم رواده دونما شك.

ومع كل ذلك نرى إبداع هذا الخليفة فى مجال الفصاحة والبلاغة لا سيما داخل مضمار الخطابة، لا يكاد يتوقف طيلة حياته، وفى مناسبات متغايرة متباينة لم يصعب عليه فيها إمساك زمام الكلام الفصيح والقول المؤثر، وبإرتجال يصحبه اقتدار، حيث نراه يخطب فى مناسبتى نكاح، استخدم فيها أسلوب الإيجاز البليغ

الموفى للغرض. حيث تذكر بعض المصادر التاريخية والأدبية[١] أن المأمون حضر املاكاً[٢]... فسأله بعض من حضر أن يخطب فقال: ((المحمود الله، والمصطفى رسول الله، وخير ما عمل به كتاب الله، قال الله تعالى: "وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ والصَّالِحِينَ مِنْ عبادِكُمْ وَإِمائِكُمْ "[٣]. ولم يكن فى المناكحة آية منزلة، ولا سنة متبعة إلا ما جعل الله فى ذلك من تآلف العبيد وبر القريب ويسارع إليها الموفق ويبادر إليها العاقل اللبيب. وفلان من قد عرفتموه فى نسب لم تجهلوه، خطب إليكم فلانة فتاتكم. وقد بذل لها من الصداق كذا، فشفعوا شافعنا، وأنكحوا خاطبنا، وقولوا خيراً تحمدوا عليه وتؤجروا. أقول قولى، وأستغفر الله لى ولكم)).

ثم فى مناسبة مماثلة أخرى بيد أنها أشد قرباً منه نراه يخطب بكلام فصيح منتظم موجز، حيث تقول نفس المصادر[٤]: ((أراد المأمون أن يزوج ابنته من الرضى على بن موسى، فقال: (يا يحيى تكلم) ... فقلت: " يا أمير المؤمنين أنت الحاكم الأكبر والإمام الأعظم وأنت أولى بالكلام". فقال: الحمد لله الذى تصاغرت الأمور بمشيئته، ولا إله إلا هو إقراراً بربوبيته، وصلى الله على محمد عند ذكره. أما بعد: فإن الله قد جعل النكاح ديناً، ورضيه حكماً، وأنزله وحياً، ليكون سبب المناسبة، ألا وإنى قد زوجت ابنه المأمون من على بن موسى، وأمهرتها أربعمائة درهم، اقتداء بسنة الله صلى الله عليه وسلم، وانتهاء إلى ما درج إليه السلف والحمد لله رب العالمين)).

وهاتان الخطبتان للمأمون تدلان أيما دلال على ارتجاله الخطب دون أن تكتب له أو يعدها أحد لكى يقرأها أمام الناس، أى أنه هو منشؤها بما أوتى من سعة الثقافة ووافر العلم منذ أن كان طفلا يرعاه بلاط والده الرشيد، حتى أصبح خليفة

---

[١] زهر الآداب وثمر الألباب: للحصرى القيروانى- ص ٤٢٩. وعيون الأخبار: للدينورى ٧٥/٤.

[٢] الإملاك: التزويج وعقد النكاح ومثل الإملاك الملاك (بكسر الميم وفتحها).

[٣] سورة النور ٣٢/٢٤.

[٤] زهر الآداب وثمر الألباب: الحصرى القيروانى- ص ٤٢٩. والأمالى: لأبى على القالى- ص ٢٧٣.

تنقاد له مقاليد القول البليغ فى كل مجال من مجالات الحياة كما انقادت لـه مقاليد الخلافة العظيمة.

وعلى وجه العموم بلحظ خطب بنى العباس فى ذلك الزمان قد تراوحت بين الخطب السياسية فى بداية عصر التأسيس، والخطب الدينية بعد أن حلت نعمة الاستقرار فى أنحاء الدولة، وقد تركوا صوتهم مجلجلاً فى مجال الخطابة، تثبته أمهات المصادر التاريخية والأدبية بما لا يجعل معه مجالاً للشك.

حيث إن عروبتهم الأصلية التى حرصوا عليها وملكتهم الناضجة ولسانهم المستقيم ووقوفهم- منذ أول يوم- موقف المعارضة قوى فيهم القدرة على الجدل، والمهارة فى الإقناع، واللدد فى الخصومة والمهارة فى الإقناع والسبق فى مجال القول، والبلاغة فى البيان، والفصاحة فى النطق، وحسن التصرف فى نواحى الكلام. على أن توطيد الملك، واستقرار الحكم، وتوفير الأمن والطمأنينة للناس، والقضاء على الشغب والفوضى التى كانوا يواجهونها، والنهوض بالبلاد والعمل على ازدهار العلم والأدب وهما دعامة مدنيات الأمم والشعوب، كانت من الأمور التى أفسحت الطريق إلى القول الرائع والمأثور الجيد، والنتاج المرموق، فتقدمت الخطابة وارتفع شأنها ودوى صوتها وعلا قد ذويها، بل صارت فاعليتها أهم فاعلية وأقواها، وما من واحد ممن تقلدوا - فى المائة الأولى- زمامها إلا كان فارس حلبة يسترعى الأسماع قوله، وبستهوى الأفئدة حديثه، ويثير الانتباه أدبه، وملك الأحاسيس كلامه، ويفعل فى النفوس فعل السحر بيانه[1].

ولكن الأمر الملفت لنظر الباحث هو عدم وجود خطب للخليفتين الذين وليا الأمر بعد المأمون وهما: المعتصم والواثق، وكأنما ازدهار الخطابة خاصة والأدب واللغة عامة بهتا بانتهاء عصر المأمون!

إضافة إلى أننا لا نجد خطبة للأمين رغم وجود بعض الاهتمامات الأدبية الأخرى لدى هؤلاء الخلفاء الثلاثة، مما يؤكد لنا عدة أمور مهمة وهى أن نسبة

---

[1] انظر: تاريخ الأدب العربى: إبراهيم أبو خسب- ص ٨٥.

الخطابة إلى خلفاء العصر العباسى الأول كانت نسبة دقيقة، بدليل عدم نسبتها إلى من لم يقلها من الخلفاء رغم ذكر مناشطهم الأدبية الأخرى.

وبصورة عامة كان أبرز سلاطين الخطابة خصوصاً، وسلاطين الثقافة عموماً: الخلفاء الثلاثة الأقوياء: المنصور والرشيد والمأمون الذين لا يستطيع أحد إنكار دورهم الفعال فى الفصاحة والبلاغة المؤثرة فى السامعين على اختلاف مستوياتهم، لا سيما اصحاب الفكر الثاقب وقد كان الناقد الأديب سهل بن هارون يقول بخصوص هذا الشأن: ((إذا كان الخليفة بليغاً والسيد خطيباً، فإنك تجد جمهور الناس وأكثر الخاصة فيهما على أمرين: إما شخصاً يعطى كلامهما من التعظيم والتفضيل والإكبار والتبجيل على قدر حالهما فى نفسه وموقعهما من قلبه، وأما آخر تعرض له التهمة لنفسه فيهما والخوف من أن يكون تعظيمهما يوهمه من صواب قولهما وبلاغة كلامهماما ليس عندهما، حتى يفرط فى الإشفاق ويسرف فى التهمة، فالأول يزيد فى حقه للذى له فى نفسه، والآخر ينقصه من حقه لتهمته لنفسه ولإشفاقه من أن يكون مخدوعاً فى أمره. فإذا كان الحب يعمى عن المساوئ فالبغض أيضا يعمى عن المحاسن. وليس يعرف حقائق مقادير المعانى ومحصول لطائف الأمور إلا عالم حكيم ومعتدل الأخلاط عليم، وإلا قوى المنة الوثيق العقدة والذى لا يميل مع ما يستميل الجمهور الأعظم والسواد الأكبر))[١].

فلا غرو إذن أن كانت الخطابة لصيقة الإمامة ورديفتها عند المؤسسين الأوائل من بنى العباس، فهى دعامة خطيرة إعلامية من دعائم تلك الدولة العظيمة فى السلم والحرب على حد سواء. مما جعل تأثيرها على السامعين تأثيراً بالغاً ساهم فى استقرار تلك الدولة العظيمة قرونا من الزمان.

المزايا الفنية لخطابة الخلفاء:

أولاً: لاحظنا أن بداية الخطبة العباسية السياسية لها أهمية خاصة حيث تمتاز ببراعة الاستهلال وحسن الاستفتاح الذى يؤثر به القائلون فى مستمعيهم، لا سيما وأن المتكلمين لهم دور خطير يريدون به إرساء دعائم الدولة. عن طريق

---

[١] البيان والتبيين: للجاحظ ١/٩٠.

استخدام العامل النفسى فى الناس مثل افتتاح الخطبة بحمد الله تعالى والثناء عليه وما يدور فى مدار هذا الفلك المؤثر، وذلك لكى يكون بين القائل والمستمع نوع من المشاركة الوجدانية الروحية، وكل ذلك مرحلة تمهيد قوية للدخول إلى موضوعه الأساسى الذى قد لا يشاطره الرأى فيه جميع السامعين. فكأن الخطيب بذلك يخرج من دائرة الاتفاق إلى دائرة الاختلاف- بتدرج ذكى- على أساس أن الخليفة هو إمام المسلمين الواجبة طاعته.

ثانياً: إكثار الخطباء فى خطبهم سواء السياسية أو الدينية الاستشهاد بالآيات القرآنية، والأحاديث الشريفة، والبلاغة العربية من شعر ونثر، وذلك دلالة امتلاكهم لناصية البيان، لأن إيراد هذه النصوص الدينية والبلاغية تدل على قوة حافظتهم ومدى قدرتهم على إيرادها فى مواضعها الملائمة من الخطبة كبراهين شرعية وأدبية على صحة قولهم وسلامة رأيهم وشدة فصاحتهم، وعمق ثقافتهم.

ثالثاً: كانت الخطابة فى مجملها معتمدة فى أسلوبها على "النموذج العباسى البليغ فى التعبير، فقد كانت تنفى الألفاظ المتوعرة الوحشية عن كلامها. كما كانت تنفى الساقط السوقى، فاختارت بذلك لغة متوسطة تقوم على الألفاظ الرشيقة ذات المخارج السهلة، كما تقوم على ضرب من التلاؤم الموسيقى والذى يكسو الكلام فى مجمله كسوة الازدواج والترادف الصوتى الجمالى"[١].

رابعاً: ارتواء خطبهم بالمحسنات البديعية والأساليب البيانية والتصاوير الفنية بما يخدم الموضوع باسلوب فنى مقنع يقوى عنصر التأثير فى المستمعين إضافة لجهارة الصوت وفصاحة النطق وثقة المنطق.

خامساً: أسلوبهم القوى فى خطبهم والذى يمتاز دائما بجزالة ألفاظهم وفصاحة عباراتهم، وكثرة الترادف بين جملهم بفواصل قريبة، وتنوع أساليبهم بين الخبر والإنشاء حسب موضوع الخطبة ومعانيها لإثارة التشويق وحسن الإنصات.

سادساً: تعتمد الخطابة السياسية العباسية على أسلوب الوعد والوعيد، وإن كان أسلوب التهديد والوعيد هو الغالب، لأن الخطب السياسية تكون موجهة للأعداء

---

[١] الفن ومذاهبه فى النثر العربى: د. شوقى ضيف- ص ١٣٣.

لإرهابهم وتخويفهم، أما أسلوب الوعد فقد كان لاستقطاب الأنصار، وكلا الطريقتين فى فن الخطابة السياسية بالذات إنما هدفها إرساء قواعد الدولة العباسية ثم تثبيتها.

* * * * * * * *

الفصل الثانى

فن الكتابة

الرسائل والعهود والوصايا

أولاً
فن الرسائل

مدخل إلى فن الكتابة :

الكتابة مظهر من مظاهر الحضارة، وعنوان من عناوين الرقى، والتقدم، وعامل من عوامل الثقافة والمعرفة، ولا نكاد نرى نهضة من النهضات إلا وتكون الكتابة هى الدعامة الأولى التى كانت ترتكز عليها، لذلك لا يقام لها وزن عند البدائيين من الشعوب ولا فى الظلام والأمية، حين دخلت الدولة فى طورها الجديد من النمو وأقبل على عهدها الجديد من التقدم، وأصبحت متطلبات ذلك الانتعاش تدعو إلى الكتابة والنظام وقيد الأشياء وحصر الأعمال وتوزيع الجهود وإثبات الكفايات وكان ذلك منذ عصر صدر الإسلام ثم الدولة الأموية، التى كان خلفاؤها يكتبرن الرسائل بأيديهم فى بداية الدولة لمكانهم من البلاغة، ثم يمهدوا بعد ذلك لكتابهم بالكتابة بعد أن شغلوا مملكتهم وإزدياد أعمالهم واستقرار أمور دولتهم، ولم يتغير الوضع كثيراً بعد انتقال الحكم للدولة العباسية، ما عدا تأثير الفرس وبلاغة المعتزلة.

ولكن الذى يعنينا من الحديث عن الكتابة ذلك النوع الذى تظهر فيه براعة الكاتب، وتتجلى مواهبه بما يفرغ فيها من ذوقه وحذقه وصناعته وفنه وكياسته وعقله وبلاغته وأدبه ونعنى به كتابة الرسائل، ولا يقصد بها إلا نوع خاص من الكتابة الإنشائية التى هى مثار الخيال ومناط الدهشة وموضع الأناقة والافتتان، ومنها الرسائل السلطانية التى تصدر عن الديوان العالى للدولة بتأييد مذهب أو تمكين سياسة أو تفضيل فريق على فريق[١].

وقد أخذت الكتابة تتحول فى صدر الدولة العباسية إلى صناعة أدبية، ونبغ فيها قمم نهضوا بأعبائها إلى ما يواكب عظمة الدولة فى ميادين العلم والأدب والسياسة والحضارة فحظوا بجاه عريض وحظوة بمناصب الدولة ما بذوا به فحول الشعراء ونوابغهم، وكيف لا وللكتابة مكانتها فى القيام بحاجة الشئون الديوانية والحضارية، فضلا عن كونها مظهراً من مظاهر الجمال الفنى للغة العربية[٢].

---

[١] انظر: تاريخ الأدب العربى: إبراهيم أبو خشب ص ١٠٦. ١٠٩.

[٢] انظر: الإطار الأدبى فى مطلع العصر العباسى: عزيزه بابثى- ص١٥٦.

ولعل أهم وأبرز أنواع الكتابة الفنية هى الرسائل التى ابتعثت فى العصر العباسى عامة ولدى الخلفاء العباسيين خاصة التى خدمت أهدافهم السياسية فى شتى المجالات الموجودة فى تلك الحقبة من الزمان، لا سيما الرسائل الديوانية بالذات التى جمعت بين أهمية المعنى وجمال قوة المبنى.

ومن ينظر نظرة عامة فى موضوع تلك الرسائل الديوانية للعصر العباسى يلاحظ أنها كانت تتناول تصديق أعمال الدولة وما يتصل بها من تولية الولاه، وأخذ البيعة للخلفاء وولاة العهود ومن الفتوح والجهاد ومواسم الحج والأعياد والأمان وأخبار الولايات وأحوالها فى المطر والخطب والجدب، وعهود الخلفاء لأبنائهم، ووصاياهم ووصايا الوزراء والحكام فى تدبير السياسة والحكم[١].

رسائل الخلفاء العباسيين:

ومن أبرز نماذج الرسائل السلطانية العباسية رسالة أبى جعفر المنصور إلى محمد النفس الزكية، ورده عليها ثم رد أبى جعفر عليهن وهى مكاتبات سياسية فى باطنها وأهدافها دينية فى ظاهرها، وذلك إثباتاً من كل منهما لحقه وحق أسرته فى الخلافة، وهى خيرنموذج على الرسائل السياسية فى ذلك الوقت، حيث كتب المنصور فى رسالته التى وجهها إلى محمد النفس الزكية الذى يمثل العلويين أبناء عمومة العباسيين[٢]:

((بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله امير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله "إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ"[٣]. ولك على عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم، إن تبت ورجعت من قبل أن أؤمنك وجميع ولدك وأخوتك وأهل بيتك ومن اتبعكم على دمائكم واموالكم، واسوغك ما أصيب من دم

---

[١] انظر: العصر العباسى الأول: د. شوقى ضيف ص ٤٦٨.

[٢] تاريخ الرسل والملوك: للطبرى- ١٧٤/٩.

[٣] سورة المائدة – آية ٣٣-٣٤.

أو مال. وأعطيك ألف ألف درهم، وما سألت من الحوائج، وأنزلك من البلاد حيث شئت وأن أطلق من فى حبسى من أهل بيتك، وأن أؤمن كل من جاءك وبايعك واتبعك، أو دخل معك فى شئ من أمرك، ثم لا أتبع أحداً منهم بشئ كان أبداً. فإن أردت ان تتوثق لنفسك فوجه إلى من أحببت بأخذ لك من الأمان والعهد والميثاق ما تثق به)).

تظهر لنا هذه الرسالة كياسة المنصور وحنكته السياسية، حيث يجمع بين الشدة واللين، والوعد والوعيد والترهيب والترغيب، فقد ابتدأ رسالته بتخويف عدوه وإرهابه،ويشيع فى قلبه الفزع والهلع، وذلك حينما قال: ((من عبد الله أمير المؤمنين)) حيث يذكره بسلطانه عليه الذى يستوجب طاعته إياه كما يأمر الإسلام الحنيف بطاعة أولى الأمر وعدم ترك بيعتهم.

والملفت فى هذه الرسالة أن المنصور ابتدأها مباشرة دون أن يذكر التحية أو السلام التى تذكر فى بدايات الرسائل، لكى يشعره بالجد والغضب. إضافة إلى أنه ابتدأ بالآية الكريمة التى يخوف الله تعالى بها عباده المخطئين الضالين: " إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا ... الآية "[1] وهذا مما يسمى براعة الاستهلال، إضافة إلى اتسام الرسالة بالوضوح وحسن أداء الغرض فى الألفاظ القوية التى أوفت حق المعانى الخطيرة[2].

ثم نرى الخصم "محمد النفس الزكية" يرد على خصمه الخليفة المنصور فى رسالة هى أقرب للحجاج التاريخى، والتعليل المنطقى وسرد البراهين التى تبين قوة حجة هذا الخصم التى أرادها أن تضاهى حجة المنصور، حيث أكثر من إيراد الأدلة القرانية التى يريد بها تأكيد أنه صاحب الحق الحقيقى. حيث يقول فى رسالته: التى نوردها هنا لكى تتبين أفكار الحوار بين الطرفين[3]:

---

[1] سورة المائدة- آية ٣٣.

[2] انظر: تاريخ الأدب العربى: إبراهيم أبو خشب – ص ١٢٠.

[3] تاريخ الطبرى: ١٧٥/٩.

((بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله المهدى محمد بن عبد الله، إلى عبد الله بن محمد " طسم، تلك آيات الكتاب المبين نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا، يستضعف طائفة منهم، ويبح أبناءهم ويستحيى نساءهم إنه كان من المفسدين، ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون". وأنا أعرض عليك من الأمان مثل الذى عرضت على. فإن الحق حقنا. وإنما ادعيتم هذا الأمر بنا، وخرجتم له بشيعتنا، وحظيتم بفضلنا. وإن أبانا علياً كان الوصى وكان الإمام، فكيف ورثتم ولايته وولده أحياء؟ ثم قد علمت أنه لم يطلب هذا الأمر أحد له مثل نسبنا وشرفنا وحالنا وشرف آبائنا. لسنا من أبناء اللعناء ولا الطرداء ولا الطلقاء. وليس يمت أحد من بنى هاشم مثل الذى يمت من القرابة والسابقة والفضل، وإنا بنو أم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاطمة بنت عمرو فى الجاهلية، وبنو بنته فاطمة فى الاسلام دونكم، إن الله اختار لنا، فوالدنا من النبيين محمد صلى الله عليه وسلم، ومن السلف أولهم إسلاما على، ومن الأزواج أفضلهم خديجة الطاهرة رأول من صلى القبلة. ومن البنات خيرهن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة. ومن المولودين فى الإسلام حسن وحسين سيدا شباب أهل الجنة. وإن هاشماً ولد علياً مرتين، وإن عبد المطلب ولد حسناً مرتين، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولدنى مرتين من قبل حسن وحسين، وأنى أوسط بنى هاشم نسباً وأصرحهم أبا، لم تعرق فى العجم، ولم تنازع فى أمهات الأولاد، فما زال الله يختار لى الآباء والأمهات فى الجاهلية والإسلام، حتى اختار لى فى النار. فأنا ابن أرفع الناس درجة فى الجنة، وأهونهم عذاباً فى النار، وأنا ابن خير الأخيار وابن خير الأشرار، وابن خير أهل الجنة وابن خير أهل النار. ولك الله على أن دخلت فى طاعتى، وأجبت دعوتى، أن أؤمنك على نفسك ومالك وعلى كل أمر أحدثته إلا حداً من حدود الله، أو حقاً لمسالم أو معاهد فقد علمت ما يلزمك من ذلك، وأنا اولى بالأمر منك وأدنى بالعهد لأنك أعطيتنى

من العهد والأمان ما أعطيته رجالاً قبلي. فأى الأمان تعطيني؟ أمان ابن هبيرة؟ أم أمان عمك عبد الله ابن علي؟ أم أمان أبي مسلم؟)).

ثم نجد المنصور يرد قاسياً على خصمه داحضاً جميع ادعاءاته إلى حد أن يقلل من شأن أموات كان لهم دور في خدمة الإسلام كعم الرسول -صلى الله عليه وسلم- أبي طالب الذى ناصر ابن أخيه محمداً عليه أفضل الصلوات والتسليم، مناصرة قوية دفعت عنه أذى القرشيين، إلا أنه لم يغير عقيدته خشية انتقاد قومه، فجعلها المنصور ذلة على أحفاد على بن أبي طالب رضى الله عنه.

كما فخر عليهم هذا الخليفة العباسى بقرابته من رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم من جهة الأعمام بعنى جدهم الذى ينتسبون اليه وهو العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه ويعير خصومه بأن قرابتهم له من جهة النساء فقط اللاتى هن أقل شأناً من الرجال، ويعنى بها فاطمة بنت محمد رضى الله تعالى عنها حيث يقول فى ردة[1]:

((بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد فقد بلغنى كلامك، وقرات كتابك، فإذا جل فخرك بقرابة النساء لتضل به الجناة والغوغاء، ولم يجعل الله للنساء كالعمومة والآباء، ولا كالعصبة والأولياء، لأن الله جعل العم أباً، ورد به فى كتابه على الوالدة الدنيا. ولو كان اختيار الله لهن على قدر قرابتهن، كانت آمنة أقربهن رحماً، وأعظمهن حقاً، وأول من يدخل الجنة غداً. ولكن اختيار الله لخلقه على علمه لما مضى منهم، واصطفائه لهم. وأما ما ذكرت من فاطمة أم أبي طالب وولادتها، فإن الله لم يرزق أحد من ولدها الإسلام لا بنتاولا ابناً، ولو أن أحداً رزق الإسلام بالقرابة، رزقه عبد الله، أولاهم بكل خير فى الدنيا والآخرة، ولكن الأمر لله يختار لدينه من يشاء. قال عزوجل: "إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ "[2].

---

[1] تاريخ الطبرى: ١٧٦/٩.

[2] سورة القصص ٥٦.

ولقد بعث الله محمدا عليه السلام وله عمومة أربعة، فأنزل الله عزوجل "وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ"[١]، فأنذرهم ودعاهم، فأجاب اثنان أحدهما أبى وأبى اثنان أحدهما أبوك. فقطع الله ولايتهما منه،ولم يجعل بينه وبينهما الا ولا ذمة ولا ميراثاً. وزعمت أنك ابن أخف أهل النار عذاباً، وابن خير الأشرار. وليس فى الكفر بالله صغير، ولا فى عذاب الله خفيف ولا يسير، وليس فى الشر خيار، ولا ينبغى لمؤمن يؤمن بالله أن يفخر بالنار، وسترد لتعلم "وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ"[٢].

ثم يكمل أبو جعفر المنصور فى رسالته التى يدحض فيها ادعاءات خصمه، مفنداً اياها بالأحداث والأدلة التاريخية، مبيناً أن ميراث الأبناء أقوى من ميراث البنات حيث أن أبناء البنات لا يورثون[٣]:

وأما ما فخرت به من فاطمة أم على، وأن هاشماً ولده مرتين، ومن فاطمة أم حسن، وأن عبد المطلب ولده مرتين وأن النبى صلى الله عليه وسلم ولدك مرتين، فخر الأولين والآخرين رسول الله صلى الله عليه وسلم، لم يلده هاشم إلا مرة ولا عبد المطلب إلا مرة وزعمت أنك أوسط بنى هاشم نسباً وأصرحهم أماً وأباً، وأنه لم يلدك العجم، ولم تعرق فيك أمهات الأولاد فقد رأيتك فخرت على بنى هاشم طرا، فانظر ويحك أين أنت من الله غدا، فإنك قد تعديت طورك، وفخرت على من هو خير منك نفسك نفساً وأباً وأولاً وآخراً، إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعلى والد والده، وما خيار بينى وبينك خاصة، وأهل الفضل منهم إلا بنوا أمهات أولاد.

وما ولد فيكم بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل من على بن حسين، وهو لم ولد، ولهو خير من جدك حسن بن حسن وما كان فيكم بعده مثل ابنه محمد بن على وجدته أو ولد، ولهو خير من أبيك ولا مثل أبيه جعفر وجدته أم ولد، ولهو خير منك، وأما قولك أنكم بنو رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن الله

---

[١] سورة الشعراء: آية ٢١٤.

[٢] سورة الشعراء: آية ٢٢٧.

[٣] تاريخ الطبرى ١٧٧/٩.

تعالى يقول فى كتابه "ما كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ "[1] ولكنكم بنو ابنته وإنها لقرابة قريبة، ولكنها لا تحوز الميراث ولا ترث الولاية ولا يجوز لها الإمامة فكيف تورث بها، ولقد طلبها أبوك بكل وجه فأخرجها نهاراً وفرضها سراً ودفنها ليلاً فأبى الناس إلا الشيخين وتفضيلهما ولقد جاء فى السنة التى لا اختلاف فيها بين المسلمين إن الجد أبا الأم والخال والخالة لا يرثون)).

ثم يكمل المنصور كتابه المطول لمحمد المكنى بالنفس الزكية، مستخدماً أسلوباً اكثر قسوة حينما تجرأ على نقد على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه نفسه متهما إياه بالسعى للخلافة رغم معارضة البعض له، ثم اتبعه ابناه الحسن والحسين رضى الله عنهما، فاولهما تنازل عن الخلافة بمقابل- كما يدعى المنصور، والآخر حارب من أجلها حتى انتقمت منه بنو أمية شر انتقام، ورغم عنف هذه الفقرة من الرسالة، إلا أننا نجد للمنصور عذراً قوياً وهو رغبته فى الحفاظ على خلافته من الخارجين عليها ومن ضمنهم العلويين: الذين ردت لهم دولة بنى العباس اعتبارهم ومكانتهم بعدما ظلمتهم دولة بنى أمية التى ثأر منها العباسيون، حيث كتب مكملاً ما بدأه:

((وأما ما فخرت به من (على) وسابقته فقد حضرت رسول الله صلى الله عليه وسلم الوفاة فأمر غيره بالصلاة ثم أخذ الناس رجلا بعد رجل فلم يأخذوه وكان فى الستة فتركوه تَلهم دفعاً له عنها ولم يروا له حقا فيها، أما عبد الرحمن فقدم عليه عثمان، وقتل عثمان وهو له متهم وقاتله طلحة والزبير وأبى سعد بيعته، وأغلق دونه بابه، ثم بايع معاوية بعده ثم طلبها بكل وجه وقاتل عليها. وتفرق عنه اصحابه، وشك فيه شيعته قبل الحكومة، ثم حكم حِكمه رضى بهما وأعطاهما عهده وميثاقه، فاجتمعا على خلعه.

ثم كان (حسن) فباعها من معاوية بخرق ودراهم، ولحق بالحجاز وأسلم شيعته بيد معاوية ودفع الأمر إلى غير أهله، وأخذ مالاً من غير ولائه ولأجله، فإن كان لكم فيها شئ فقد بعتموه وأخذتم ثمنه. ثم خرج عمك (حسين) بن على، على

---

[1] سورة الأحزاب – الاية ٤٠.

ابن مرجانه فكان الناس معه عليه حتى قتلوه وأتوا برأسه إليه ثم خرجتم على بنى أمية فقتلوكم وصلبوكم على جذوع النخل وأحرقوكم بالنبران، ونفوكم من البدان حتى قتل يحيى بن زيد بخراسان. وقتلوا رجالكم وأسروا الصبية والنساء وحملوهم بلا وطاء فى المحامل كالسبى المجلوب إلى الشام حتى خرجنا عليهم فطلبنا بثأركم وأدركنا بدمائكم، وأورثناكم ارضهم وديارهم وسنينا سلفكم وفضلناه، فاتخذت ذلك علينا حجة وظنت إنا إنما ذكرنا أباك وفضلناه للتقدمةمنا له على حمزة والعباس وجعفر. وليس ذلك كما ظننت ولكن خرج هؤلاء من الدنيا سالمين، متسلماً منهم، مجتمعا عليهم بالفضل وابتلى أبوك بالقتال والحرب، وكانت بنو أمية تلعنه كما تلعن الكفرة فى الصلاة المكتوبة، فاحتججنا له وذكرناهم فضله وعنفناهم وظلمناهم بما نالوا منه)).

ثم نرى الأمر يستفحل فى رد أبى جعفر المنصور على رسالة محمد الملقب بالنفس الزكية حيث يتعمق فخره عليه إلى زمن الجاهلية الأولى حيث كانت لهم السقاية والرفادة ولكن الذى يدلنا على أن المنصور لم يكن هدفه الفخر فحسب أنه حرص على إيراد جميع الأدلة فى كل الأزمنة سواء قبل الإسلام أم فى حياة نبى المسلمين محمد صلى الله عليه وسلم أم بعد وفاته ودور الصحابة فى تقديم جدهم العباس على جد العلويين الذين خرجوا عليهم فأراد المنصور دحرهم بالدليل القاطع قبل حربهم بالسيف الذى اضطروا إليه حيث كتب:

((ولقد علمت أن مكرمتنا فى الجاهلية سقاية الحجيج الأعظم وولاية زمزم فصارت للعباس من بين إخوته، فنازعنا فيه أبوك فقضى لنا عليه عمر، فلم نزل نليها فى الجاهلية والإسلام، ولقد قحط أهل المدينة فلم يتوسل عمر إلى ربه ولم يتقرب إليه إلا بأبينا، حتى نعشهم الله وسقاهم الغيث، وأبوك حاضرلم يتوسل به، لقد علمت أنه لم يبق أحد من بنى عبد المطلب بعد النبى صلى الله عليه وسلم غيره فكان وارثة من عمومته. ثم طلب هذا الأمر غير واحد من بنى هاشم فلم ينله إلا ولده: فالسقاية سقايته وميراث النبى له والخلافة فى ولده فلم يبق شريف ولا فضل فى جاهلية ولا إسلام فى دنيا ولا آخرة، إلا والعباس وارثه ومورثه.

أما ما ذكرت من بدر فإن الإسلا جاء والعباس يمون أبا طالب وعياله وينفق عليهم للأزمة التى أصابته. ولولا أن العباس أخرج إلى بدر كرها، لمات طالب وعقيل جوعا وللحسا جفان عتبة وشبية، ولكنه كان من المطعمين، فأذهب عنكم العار والسبة وكفاكم النفقة والمؤونة ثم فدى عقيلاً يوم بدر. فكيف نفخر علينا، وقد أعناكم فى الكفر، وفديناكم من السر وحزنا عليكم مكارم الآباء ورثنا دونكم خاتم الأنبياء وطلبنا بثأركم فأدركنا منه ما عجزتم عنه، ولم تدركوا لأنفسكم؟! والسلام عليكم ورحمة الله!)).

ونستكشف من هذه الرسالة المطولة سعة ثقافة المنصور الدينية والتاريخية التى أعطت الرسالة الأهمية فلولاها لم يكن لها أى بعد أدبى ولكن الحجج المدعمة بالأدلة والبراهين المستندة إلى الآيات القرآنية أعطتها ثقلاً ملحوظاً.

وإذا كانت رسالة أبى جعفر المنصور إلى محمد العلوى الملقب بالنفس الزكية هى من أطول الرسائل السياسية فإن رسالة المنصور إلى أبى مسلم الخرسانى كانت من ضمن الرسائل القصيرة، وذلك لاختلاف المناسبتين فإن الأولى طالت لأنها داخلة فى نطاق الحجاج التاريخى الذى بدأ به الخصم، مما اضطر الخليفة العباسى لدحضه بأسلوب المثل بالمثل، اما فى حالة أبى مسلم فإن الأمر كان يستدعى الإيجاز لطمأنة الخصم لحين الايقاع به، لأن المنصور لم يكن يريد أن يجادل أبا مسلم إنما كان يريد الانتقام منه ومن بطشه حيث نرى رسالة المنصور التى وجهها لأبى مسلم رداً على كتابه الذى أعلن له فيه رفضه للقائه خشية من انتقامه،ويقول فيها هذا الخليفة الممتلئ ذكاء وقوة[1]:

((قد فهمت كتابك، وليست صنتك صفة أولئك الوزراء الغششة ملوكهم، الذين يتمنون اضطراب حبل الدولة لكثرة جرائمهم، فإنما راحتهم فى انتشار نظام الجماعة. فلم سويت نفسك بهم. زانت فى طاعتك ومنا صحتك واضطلاعك بما حملت من أعباء هذا الأمر على ما أنت به! وليس مع الشريطة التى أوجبت منك سمع ولا طاعة. وحمل إليك أمير المؤمنين عيسى بن موسى رسالة لتسكن اليها إن

---

[1] تاريخ الطبرى: ١٢٢/٩.

أصغيت إليها، وأسأل الله أن يحول بين الشيطان ونزغاته وبينك، فإنه لم يجد باباً يفسد به نيتك أو كد عنده وأقرب من طبه من الباب الذى فتحه عليك)).

ومن الواضح أن الرسالة رغم قصرها إلا أنها توحى بالاستدراج للخصم العنيد الذى يريد من بنى العباس أن يردوا له الجميل مضاعفاً، مما أدى به خوفا من اتساع سلطته وسلطانه. لا سيما أن أبا مسلم كان قد كتب للمنصور الكتاب الذى يقول فيه: ((إنه لم يبق لأمير المؤمنين-أكرمه الله- عدو إلا مكنه الله منه، وقد كنا نروى عن ملوك آل ساسان: أن أخوف ما يكون الوزراء إذا سكنت الدهماء[١]، فنحن نافرون من قربك حريصون على الوفاء بعهدك ما وفيت حريون بالسمع والطاعة غير أنها من بعيد حيث تقارنها السلامة، فإن أرضاك ذاك فأنا كأحسن عبيدك، فإن أبيت إلا أن تعطى نفسك إرادتها، نقضت ما أبرمت من عهدك ضناً بنفسى))[٢]. حيث لا تخفى لغة الخوف والتردد والندم فى لهجة هذا الخطاب الذى لم يرد قدر أبى مسلم رغم شدة احترازه.

ومن ضمن رسائل المنصور السياسية البارزة إلى أعدائه ومنافسيه فى الداخل ما روى أن يزيد بن عمر بن هبيرة أرسل إلى المنصور وهو محصور بواسط والمنصور بإزائه: إنى خارج يوم كذا وكذا وداعيك إلى المبارزة فقد بلغنى تجبينك إياى، فكتب إليه أبو جعفر[٣]:

((يا بن هبيرة، إنك أمرؤ متعد طورك. جار فى عنان غيك يعدك الله ما هو مصدقه ويمنيك الشيطان ما هو مكذبه، ويقرب ما الله مباعده، فروياً يتم الكتاب أجله، وقد ضربت مثلى ومثلك: بلغنى أن أسداً لقى خنزيراً فقال له الخنزير: قاتلنى، فقال الأسد: إنما أنت خنزير، ولست لى بكفء ولا نظير، ومتى فعلت الذى دعوتنى إليه فقتلتك قيل لى: قتلت خنزيراً، فلم أعتقد بذلك فخراً ولا ذكرا، وإن نالنى منك شئ كان سبة على فقال: إن أنت لم تفعل رجعت فأعلمتها أنك نكلت على

---

[١] الدهماء: الحرب.

[٢] تاريخ الطبرى ٩/٢٣٨.

[٣] جمهورة رسائل العرب: د. أحمد زكى صفوت ٣/١٠.

وجبت عن قتالى، فقال الأسد، احتمال عار كذبك أيسر علـى مـن لطـخ شـاربى بدمك)).

فنلاحظ فى هذه الرسالة للنصور أنها تحمل الطابع الأدبى المتلائم مع روح العصر العباسى المتأثر بعنصر الترجمة التى نقلت إلينا آداب الأمم الأخرى وحكمها وفلسفاتها، على الرغم من أنها رسالة سياسية تبين لنا بعض أحداث ذلـك العصـر فتظهر فيها الصنعة والحبكة وعمق التفكير، وذلك من خلال استخدام المثـل الـذى ساقه المنصور لابن هبيره الذى لا يقف عند حدود المثل التقليدى المـوروث عـن العرب، ولكنه تعدى ذلك إلى التأثر بآداب الأمم الأخرى، فهذا المثل الـذى ضـربه المنصور بشبه إلى حد بعيد ما نقله ابن المقفع عن بلاد فارس والهنـد فـى كتابـه "كليله ودمنة" الذى أجرى فيه الحوار على ألسنة الطير والحيوانات، فتظهر لنا حبكة المنصور فى استخدام هذا المثل الذى يدل على مراد المنصور بطريقة ذكية تعلـق بالأذهان مدى الزمان[١].

كما جاء فى خاتمة التمثيل القصصى عبارة معبرة تعـد بمثابـة الرمـز أو التخليص للمراد، وهى عبارة ((احتمال عار كذبك أيسر على مـن لطـخ شـاربى بدمك)). وسر تأثير هذه القصة هو جدتها وعدم تكرارها، مما يبين المـدى الكبيـر الذى وصل إليه عمق العقل العربى إبان ذاك العصر.

ويبدو أن حلقة الخلاف السياسى تضيق فى عهد المنصور، فبعد أن كانـت مع الأعداء الخارجيين ضاقت حتى أضحت مع الثوار الداخليين. ثم ازدادت ضـيقاً حتى صارت مع أبناء العلم العلويين، إلى أن وصلت إلى الخلاف مع أقرب النـاس، فها هو الخليفة المنصور يبعث رسالة إلى اب أخيهِ عيسى بن موسى الذى كان مـن المفترض أن يلى الخلافة بعده، يخبره أنه سيوسى لابنه المهدى بولاية العهد، لأنه يرى أن الله تعالى قد حباه محبة الناس والجند فهو مستحق لخلافة النـاس، حيـث كتب المنصور إلى عيسى ما يلى[٢]:

---

[١] انظر: صورة من النثر الفنى فى العصر العباسى: د. محمد مصطفى منصور ص١١١.

[٢] تاريخ الطبرى ٢٣٨/٩.

((بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله، عبد الله المنصور أمير المؤمنين إلى عيسى بن موسى سلام عليك فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو، أما بعد، فالحمد لله ذى المن القديم، والفضل العظيم، والبلاء الحسن الجميل، الذى ابتدأ الخلق بعلمه، وأنفذ اقضاء بأمره، فلا يبلغ مخلوق كنه حقه، ولا ينال فى عظمته كنه ذكره، يدبر ما أراد من الأمور بقدرته، ويصدرها عن مشيئته لا قاضى فيها غيره ولا نفاذ لها إلا به، يجريها على إذلالها، لا يستأمر فيها وزيراً، ولا يشاور فيها معيناً، ولا يلتبس عليه شئ أراده، ويمضى قضاؤه فيما أحب العباد وكرهوا، لا يستطيعون منه امتناعاً ولا عن أنفسهم دفاعاً، رب الأرض ومن عليها، له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين.

ثم إنك قد علمت الحال التى كنا عليها فى ولاية الظلمة، كيف كانت قوتنا وحيلتنا لما اجترأ عليه أهل البيت اللعنة فيما أحببنا وكرهنا، فصبرنا أنفسنا على ما دعونا إليه من تسليم الأمور إلى من أسندوها إليه واجتمع رأيهم عليه، نسام الخسف ونوطأ بالعسف لا ندفع ظلماً ولا نمنع ضماً ولا نعطى حقاً ولا ننكر منكراً ولا نستطيع لها ولا لأنفسنا نفعاً، حتى إذا بلغ الكتاب أجله، وانتهى الأمر إلى مدته، وأذن الله فى هلاك عدوه، وارتاح بالرحمة لأهل بيت نبيه صلى الله عليه وسلم فابتعث الله لهم أنصاراً يطلبون بثأرهم، ويجاهدون عدوهم، ويدعون إلى حبهم، وينصرون دولتهم، من أرضين متفرقة، وأسباب مختلفة، وأهواء مؤتلفة، فجمعهم الله على طاعتنا، وألف بين قلوبهم بمودتنا على نصرتنا، واعزهم بنصرنا، فلم نلق منهم رجلاً، ولم نشهد معهم إلا ما قذف الله فى قلوبهم حتى ابتعثهم لنا من بلادهم ببصائر نافذة، وطاعة خالصة، يلقون الظفر، ويعودون بالنصر وينصرون بالرعب لا يلقون أحداً إلا هزموه، ولا واتراً إلا قتلوه، حتى بلغ الله بنا بذلك اقصى مدانا وغاية منانا ومنتهى آمالنا وإظهار حقنا، وإهلاك عدونا، وكرامة من الله جل وعز لنا، وفضلا منه علينا، بغير حول منا ولا قوة.

فالمنصور يبتدئ رسالته السياسية هذه بحمد الله تعالى مبينا أن كل شئ سائر بأمره، وكأنما هو يلمح لأن خلافة ابنه المهدى هو ما يريده الخالق الحكيم،

مذكراً إياه بعهد بنى أمية الذين كانوا يسومونهم المر ويذيقونهم الأذى، حتى نصرهم الله بجنده الذين أحبوهم لأنهم أهل بيت النبى صلى الله عليه وسلم.

ثم أوضح أن ذلك الحب الواسع لآل البيت قد امتد إلى حب ابنه المهدى، لذلك فالمنصور يرى أنه الأحق بولاية من يحبونه لكى ينقادوا له وينضووا تحت لوائه، حيث كتب يقول مكملاً رسالته ومبرراً اختياره للمهدى وأنه لا يرغب أن يخالف رغبة العامة وما أجمعوا عليه حتى ولو كان ذلك شديداً على نفسه التى لا تريد أن تغصب أحداً من قرابته، لذا فهو يحثه على المسارعة بالمبايعة ليكون قدوة لجميع أنصار دولة بنى العباس:

((ثم لم نزل من ذلك فى نعمة الله وفضله علينا، حتى نشأ هذا الغلام فقذف الله له فى قلوب انصار الدين الذين ابتعثهم لنا مثل ابتدائه لنا أول أمرنا، وأشرب قلوبهم مودته، وقسم فى صدورهم محبته فصاروا لا يذكرون إلا فضله ولا ينوهون إلا بإسمه ولا يعرفون إلا حقه، فلما رأى أمير المؤمنين ما قذف الله فى قلوبهم من مودته وأجرى على ألسنتهم من ذكره ومعرفتهم إياه بعلاماته واسمه، ودعاء العامة على طاعته، أيقنت نفس أمير المؤمنين أن ذلك أمر تولاه الله وصنعه، لم يكن للعباد فيه أمر ولا قدرة، ولا مؤامرة ولا مذاكرة، للذين رأى أمير المؤمنين من اجتماع الكلمة، وتتابع العامة، حتى ظن أمير المؤمنين أنه لولا معرفة المهدى بحق الأبوة، لأفضت الأمور إليه.

وكان أمير المؤمنين لا يمنع مما اجتمعت عليه العامة ولا يجد مناصاً عن خلاص ما دعوا إليه وكان أشد الناس على امير المؤمنين فى الأقرب منْ خاصته وثقاته من حرسه وشرطه، فلم يجد أمير المؤمنين بداً من استصلاحهم ومتابعتهم، وكان أمير المؤمنين وأهل بيته احق من سارع إلى ذلك وحرص عليه ورغب فيه وعرف فضله، ورجا بركته، وصدق الرواية فيه، وحمد الله إذ جعل فى ذريته مثل ما سألت الأنبياء قبله، إذ قال العبد الصالح: "فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يعقُوب وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً" فوهب الله لأمير المؤمنين ولياً، ثم جعله تقياً مباركاً مهدياً، وللنبى صلى الله عليه وسلم سمياً وسلب من انتحل هذا الاسم ودعا

إلى تلك الشبهة التى تحير فيها أهل النية وافتتن بها أهل تلك الشقوة فانتزع ذلك منهم وجعل دائرة السوء عليهم وأقر الحق قراره وأعلن للمهدى مناره، وللدين أنصار فأحب أمير المؤمنين أن يعلمك الذى اجتمع عليه رأى رعيته وكنت فى نفسه بمنزلة ولده، يحب من سترك ورشدك وزينك ما يحب لنفسه وولده، ويرى إذا بلغك من حال ابن عمك ما ترى من اجتماع الناس عليه أن يكون ابتداءُ ذلك من قبلك ليعلم أنصارنا من أهل خراسان وغيرهم انك أسرع إلى ما أحبوا مما عليه رأيهم فى صلاحهم منهم إلى ذلك من أنفسهم وإن ما كان عليه من فضل عرفوه للمهدى أو أملوه فيه، كنت أحظى الناس بذلك وأسرعهم به لمكانه وقرابته فاقبل نصح أمير المؤمنين لك، تصلح وترشد. والسلام عليك ورحمة الله)).

وفعلاً تمت البيعة للمهدى بن المنصور فى حياة والده الذى تعلق به كثيراً واضطر عيسى بن موسى كارهاً أن يبايع من أخذ مكانه رغم معارضته الشديدة فى بداية الأمر. مما يبين حجم الشأن الخطير الذى وصل له تأثير الرسائل السياسية إبان ذلك الوقت فقد اعتمدت فن الإقناع والتأثير النفسى فى إطار أسلوبى فصيح تسوده الجدية.

وقد ظهر التفنن فى كتابة الرسائل الديوانية والسياسية حيث أبدعوا طويلا فى التحميدات التىتصدر بها الرسائل، وتنسب إلى هارون الرشيد أنه أول من أمر أن تبتدئ مكاتباته بعد البسملة بالصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم[١].

وأما أيدينا كتاب له يدل على حرص الخلفاء آنذاك على توثيق رسائلهم السياسية بأيديهم إرهاباً للخصم وتأكيدا لما جاء فيه إلا أن المؤلف لم يذكر فيه الصلاة على النبى عليه أفضل الصلوات والتسليم، ولعل الغضب هو الذى منع الرشيد من ان يورد عبارات تدل على الليونة والمسالمة، والدليل على ذلك ما نادى به وإليه من طريقة تدل على موقفه منه بسبب خيانته له ولعهده وسوء سيرته، مما جعله يعزله عن الولاية ويبدله بخير منه.

---

[١] النجوم الزاهرة: جلال الدين الأتابكى – ٢/١٠٣.

فقد ذكر الطبرى فى أخبار عام ١٩١ هـ هارون الرشيد: أنه ((كتب إلى على بن عيسى بن ما هان كتاباً يخصه ونسخته[١]) ((بسم الله الرحمن الرحيم يا ابن الزانية، رفعت من قدرك، ونوهت باسمك، وأوطأت سادة العرب عقبك، وجعلت أبناء ملوك العجم خولك وأتباعك، فكان جزائ أن خالفت عهدى ونبذت وراء ظهرك أمرى. حتى عثت فى الأرض، وظلمت الرعية، وأسخطت الله وخليفته، بسوء سيرتك، ورداءة طعمتك، وظاهر خيانتك، وقد وليت هرثمة بن أعين مولاى، ثغر خراسان وأمرنه أن ينشد وطأته عليك وعلى ولدك وكتابك وعمالك ولا يترك وراء ظهوركم درهماً، ولا حقاً لمسلم أو معاهد إلا أخذكم به حتى تردده إلى أهله. فإن أبيت ذلك، وأباه ولدك وعمالك، فله أن يبسط عليكم العذاب ويصب عليكم السياط، ويحل بكم ما يحل بمن نكث وغير. وبدل خالف، وظلم وتعدى وغشم، انتقاماً لله عزوجل، بادئاً، ولخليفته ثانياً، وللمسلمين والمعاهدين ثالثاً. فلا تعرض نفسك للتى لا شوى لها، وأخرج مما يلزمك طائعاً أو مكرهاً)).

وإذا كان الكتاب السابق الغاضب مبادرةمن هارون الرشيد لواليه الذى خان عهده، فإننا بين أيدينا على كتاب الخليفة الذى تولى بعد الوالى المغضوب عليه على بن موسى، وهو هرثمة بن أعين الذى ولاه الرشيد على خراسان، فأرسل يخاطب أمير المؤمنين مخبراً اياه بما حدث معه من أحداث وخصوم، حيث كتب الرشيد فى رده هذا[٢]:

((بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد، فقد بلغ أمير المؤمنين كتابك بقدومك مرو فى اليو الذى سميت، على الحال التى وصفت وما فسرت وما كنت قدمت من الحيل قبل ورودك اياها، وعلمت به فى أمر الكور التى سميت وتولية من وليت عليها قبل نفوذلك عنها، ولطفت له من الأمر الذى استجمع لك به ما أردت من أمر الخائن على بن عيسى وولده وأهل بيته، ومن صار فى يدك عماله وأصحاب أعماله واحتذائك فى ذلك كله ما كان أمير المؤمنين مثل لك ووقفك عليه، وفيهم أمير المؤمنين كل ما كتبت به، وحمد الله على ذلك كثراً وعلى تسديده إياك وما

---

[١] المصدر السابق ١١٥.

أعانك به من توفيقه، حتى بلغت إرادة أمير المؤمنين وأدركت طلبته، وأحسنت ما كان يحب بك وعلى يديك أحكامه، مما كان أشتد به اعتنازه ولج به اهتمامه وجزاك الخير على نصيحتك وكفايتك، فلا أعدم الله أمير المؤمنين أحسن ما عرفه منك في كل ما أهاب بك اليه واعتمد بك عليه.

وأمير المؤمنين يأمرك أن تزداد جداً واجتهاداً فيما أمرك به من تتبع أحوال الخائن على بن عيسى وولده وكتابه وعماله ووكلائه وجهابذته والنظر فيما اختانوا به أمير المؤمنين فى أمواله، وظلموا به الرعية فى أموالهم، وتتبع ذلك واستخراجه من مظانه ومواضعه، التى صارت إليه ومن أيدى أصحاب الودائع التى استودعوها اياهم، واستعمال اللين والشدة فى ذلك كله حتى تصير إلى استنظاف ما وراء ظهورهم، ولا تبقى من نفسك فى ذلك بقية، وفى إنصاف الناس منهم فى حقوقهم ومظالمهم، حتى لا تبقى لمتظلم منهم قبلهم ظلامه إلا استقضيت ذلك له، وحملته واياهم على الحق والعدل فيها، فإذا بلغت أقصى غاية الإحكام والمبالغة فى ذلك، فأشخص الخائن وولده وأهل بيته وكتابه وعماله إلى أمير المؤمنين فى وثاق، وعلى الحال التى استحقوها من التغيير والتنكيل بما كسبت أيديهم وما الله بظلام للعبيد)).

ولم يكتف الرشيد بهذا القدر الوافر من الرد الكتابى رغم استيفائه لأسلوب النصح السلطانى الذى يأمر برد مظالم الوالى السابق عن رعيته، وإقامة العدل، وطاعة ولى الأمر، بل نراه يستدرك كتابه بتفصيل وتأكيد على الجوانب المهمة وهو الحصول على ولاء الرعية التى أبدلها الله بحاكم صالح مكان الذى كانوا يتأذون منه فى السابق، حيث يختم رده بقوله:

((ثم أعمل بما أمرك به أمير المؤمنين من الشخوص إلى سمرقند، ومحاولة ما قبل خامل، ومن كان على رأيه ممن أظهر خلافا وامتناعاً من أهل كور ما وراء النهر وطخارستان بالدعاء إلى الغيئة والمراجعة، وبسط أمانات أمير المؤمنين التى حملكها إليهم، فإن قبلوا وأنابوا وراجعوا ما هو أملك بهم، وفرقوا جموعهم فهو ما يحب أمير المؤمنين لهم إذ يعاملهم به من العفو عنهم والإقالة لهم إذ كانوا رعيته وهو الواجب على أمير المؤمنين لهم إذ أجابهم إلى طلبتهم وآمن

روعهم وكفاهم ولاية من كرهوا ولايته، وأمر بإنصافهم فى حقوقهم وظلاماتهم- وإن خالفوا ما ظن أمير المؤمنين فحاكمهم إلى الله إذ طغوا وبغوا وكرهوا العافية وردوها، فإن أمير المؤمنين قد قضى ما عليه فغير ونكل وعزل واستبدل وعفا عمن أحدث وصفح عمن اجترم، وهو يشهد الله عليهم بعد ذلك فى خلاف إن آثروه وعنود[١] إن أظهروه وكفى بالله شهيداً ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم عليه يتوكل وإليه ينيب. والسلام)).

والملاحظ على هذا الرد أنه يختلف عن الرسالة السابقة للوالى الأسبق، سواء من حيث الأسلوب الذى كانت تشوبه القسوة والايجاز فى حالة الغضب على الأول، أما الثانى فقد تغير الوضع إلى الوعظ والنصح والإرشاد بأسلوب مسهب مطنب.

والفرق البين الثانى هو أن الخليفة قد تحدث فى الرسالة الأولى بأسلوب فكانت مثل: رفعت من قدرك ونوهت باسمك ... الخ، أما فى الرسالة الثانية فكانت بأسلوب الكتابة بلقب أمير المؤمنين، مثل اعمل بما يأمرك أمير المؤمنين فقد يعود السبب لهدوء الرشيد وعودته إلى لقبه الذى يفخر به وقد يكون أملاه على أحد كتابه رغم أنه عرف عنه أنه يكتب كتبه بخط يده.

أما الرسائل السياسية فى عهد المأمون فكان لها طابع خاص حيث كانت فى البداية بينه وبين أخيه الأمين قبل الفتنة وأثناءها، فكانت الرسالة الأولى هى التى بعث بها الأمين إلى أخيه وولى عهده المأمون يخبره بوفاة والدهما هارون الرشيد ويعزية فى فقده، ويعدد مناقبه، ويطالب أخاه بالولاء وأخذ البيعة له، واعداً الجميع بحسن الثواب وجميل المجازاة وكانت نسخة كتاب محمد إلى أخيه عبد الله المأمون كالتالى[٢]:

((إذا ورد عليك كتاب أخيك -أعاذه الله من فقدك- عند حلول ما لا مرد له ولا مدفع مما قد خلف وتناسخ فى الأمم الخالية والقرون الماضية فعز نفسك ما

---

[١] عنود: من العناد والميل عن جادة الطريق.

[٢] تاريخ الطبرى ١٠/١٣٥.

عزاك الله به، واعلم أن الله جل ثناؤه قد اختار لأمير المؤمنين أفضل الدارين وأجزل الحظين فقبضه الله طاهراً زاكياً، قد شكر سعيه وغفر ذنبه إن شاء الله فقم في أمرك قيام ذي الحزم والعزم، والناظر لأخيه ونفسه وسلطانه وعامة المسلمين. وإياك أن يغلب عليك الجزع، فإنه يحبط الأجر ويعقب الوزر. وصلوات الله على أمير المؤمنين حيا وميتاً، وإنا لله وإنا إليه راجعون؟ وخذ البيعة عمن قبلك من قوادك وجندك وحاصتك وعامتك لأخيك ثم لنفسك ثم للقاسم ابن أمير المؤمنين، على الشريطة التي جعلها لك أمير المؤمنين من نسخها له وإثباتها، فإنك مقلد من ذلك ما قلدك الله وخليفته. واعلم من قبلك رأيي في صلاحهم وسد خلتهم والتوسعة عليهم، فمن أنكرته عند بيعته أو اتهمته على طاعته، فابعث إلي رأسه مع خبره، وإياك وإقالته، فإن النار أولى به، واكتب إلي عمال ثغورك وأمراء أجنادك بما طرقك من المصيبة بأمير المؤمنين. وأعلمهم أن الله لم يرض الدنيا له ثوابا حتى قبضه إلى روحه وراحته وجنته، مغبوطاً محموداً قائداً لجميع خلفائه إلى الجنة إن شاء الله ومرهم أن يأخذوا البيعة على أجنادهم وخواصهم وعوامهم على مثل ما أمرتك به من أخذها على من قبلك وأوعز إليهم في ضبط ثغورهم والقوة على عدوهم واعلمهم أني متفقد حالاتهم ولام شعثهم وموسع عليهم ولا تني في تقوية أجنادي وأنصاري، ولتكن كتبك إليهم كتباً عامة، لتقرأ عليهم، فإن في ذلك ما يسكنهم ويبسط أملهم، واعمل بما تأمر به لمن حضرك، أو نأى عنك من أجنادك على حسب ما ترى وتشاهد، فإن أخاك يعرف حسن اختيارك وصحة رأيك وبعد نظرك، وهو يستحفظ الله لك، ويسأله أن يشد به عضدك ويجمع بك أمره إنه لطيف لما يشاء)).

ويتضح من هذه الرسالة مبادرة الأمين لتولي الخلافة بعد والده، حيث يكثر فيها أسلوب الأمر والنصح اللذان لا يصدران إلا من الطرف الأعلى إلى من هو دونه، وإن كانت لا تخلو من إظهار التلطف وحسن النوايا، محاط كل ذلك باسلوب إسلامي يربط الدين بالدنيا.

إلا أن الأحوال بين الأخوين ساءت فيما بعد، حيث ابتدأ أعوان الأمين يوغرون صدره ضد أخيه، فأرسل له غاضبة يشوبها التهديد، لكى يعيد أماكن وضياع كان والده الرشيد قد وهبها إياه وولاه عليها، وذلك لكى لا يطالبه بريعها وخراجها الذى قد طالبه سابقاً بها حيث يقول الأمين فى رسالته هذه[١]:

((اما بعد، فإن أمير المؤمنين الرشيد وإن كان أفردك بالطرف، وضم ما ضم اليك من كرو الجبل، تأييداً وتحصيناً لطرفك، فإن لا يوجب فضله المال عن كفايتك. وقد كان هذا الطرف وخراجه كافياً لحدثه: ثم تتجاوز بعد الكفاية إلى ما يفضل من رده وقد ضم لك إلى الطرف كوراً من أمهات كور الأموال لا حاجة لك فيها، فالحق فيها أن تكون مردودة فى أهلها ومواضع حقها. فكتبت إليك أسألك رد تك الكور إلى ما كانت عليه من حالها، لتكون فضول ردها مصروفة إلى مواضعها، وأن تأذن لقائم بالخبر يكون بحضرتك يؤدى إلينا علم ما نعنى به من خبر طرفك، فكتبت نلط[٢] دون ذلك بما إن تم أمرك عليه صيرنا الحق مطالبتك فاثن عن همك اثن عن مطالبتك إن شاء الله)).

فلما قرأ المأمون كتاب أخيه كتب مجيباً له كتاباً موجزاً فى لفظه قوياً فى مرماه فهو يريد من الخليفة الأسير ألا يفتته بغمط حقه الذى وهبه الله له ورضى والدهما الرشيد به، وإلا سيضطر للدفاع عن حقوقه بكل الوسائل بما فيها خلع البيعة يقول فيه[٣]:

((أما بعد فقد بلغنى كتاب أمير المؤمنين ولم يكتب فيما جهل فاكتشف له عن وجهه ولم يسأل ما يوجبه حق فيلزمنى الحجة بترك إجابته وإنما يتجاوز المتناظران منزلة النصفة ما ضاقت النصفة عن أهلها فمتى تجاوز متجاوز- وهى موجودة الوسع- ولم يكن تجاوزها إلا عن نقضها واحتمال ما فى تركها، فلا تبعثنى يا ابن أبى على مخالفتك وأنا مذعن بطاعتك، ولا على قطيعتك، وأنا على

---

[١] تاريخ الطبرى ١٠/١٤٣.

[٢] نلط: أى تجد.

[٣] تاريخ الطبرى ١٠/١٤٣.

إيثار ما تحب من صلتك وارض بما حكم به الحق فى أمرك أكن بالمكان الذى أنزلنى به الحق فيما بينى وبينك. والسلام)).

فلما وصل كتاب المأمون إلى الأمين وصل منه ما فظع به، وتخمط غيظاً بما تردد منه فى سمعه وأمر عند ذلك الإمساك عن الدعاء له على المنابر، وكتب إليه متهدداً متوعداً[١]:

((أما بعد، فقد بلغنى كتابك غامطاً لنعمة الله عليك فيما مكن لك من ظلها، متعرضاً لحراق نار لا قبل لك بها، ولحظك عن الطاعة كان أودع لك، وإن كان قد تقدم منى متقدم فليس بخارج من مواضع نفعك إذ كان راجعاً على العامة من رعيتك وأكثر من ذلك ما يمكن لك من منزلة السلامة. ويثبت لك من حال الهدنة، فأعلمنى رأيك أعمل عليه. إن شاء الله)).

ويبدو أن الأمر قد تفاقم بين الأخوين إلى درجة تنذر بالخطر حيث تشبث كل منهما برأيه فقد استمرت المراسلات ذات اللهجة المتشددة بينهما، حيث كتب المامون إلى أخيه حرل تطورات هذا الموضوع[٢]:

((أما بعد: فإن نظر أمير المؤمنين للعامة نظر من لا يقتصر عنه على إعطاء النصفة من نفسه حتى يتجاوزها إليهم ببره وصلته وإذا كان ذلك رأيه فى عامته، فأحر به أن يكون على مجاورة ذلك بصنوه وقسيم نسبه، فقد تعلم يا أمير المؤمنين -حالاً أنا عليها من ثغور حللت بين لهواتها وأجناد لا تزال موقنة بنشر غيها وبنكت آرائها وقلة الخرج قبلى، والأهل والولد قبل أمير المؤمنين، وما للأهل - وإن كانوا فى كفاية من بر أمير المؤمنين، فكان لهم والداً- بد من الإشراف والنزوع إلى كنفى ومالى بالمال من القوة والظهير على لم الشعث بحضرتى وقد وجهت لحمل العيال وحمل ذلك بالمال، فرأى أمير المؤمنين فى إجازة فلان إلى الرقة فى حمل ذلك المال، والأمر بمعونته عليه غير محرج له فيه إلى ضيقة تقع بمخالفته أو حامل له على رأى يكون على غير موافقة. والسلام)).

---

[١] نفسه.

[٢] المصدر السابق.

فرد عليه الأمين مستعجلاً ومصراً على رأيه الذى يرى وجوب رد ما وهبه الرشيد إياه لكى يفيد به عامة الناس، ويصلح به أحوال الرعية ومصالح البلاد حيث كتب له[١]:

((أما بعد فقد بلغنى كتابك بما ذكرت مما عليه رأى أمير المؤمنين فى عامته فضلاً عما يجب من حق لذى حرمته وخليط نفسه ومحلك بين لهوات ثغور، وحاجتك لمحلك بينها إلى فضله من المال لتأييد أمرك، والمال الذى سمى لك من مال الله، وتوجيهك من وجهت فى حمله وحمل أهلك من قبل أمير المؤمنين ولعمرى ما ينكر المؤمنين رأيا هو عليه مما ذكرت لعامته يوجب عليه من حقوق أقربيه وعامته وبه إلى ذلك المال الذى ذكرت حاجة فى تحصين أمور المسلمين فكان أولى به إجراؤه منه على فرائضه ورده على مواضع حقه، وليس بخارج من نفعك ما عاد بنفع العامة من رعيتك. وأما ما ذكرت من حمل أهلك فإن رأى أمير المؤمنين تولى أمرهم وإن كنت بالمكان الذى انت به من حق القرابة ولم أر من حملهم على سفرهم مثل الذى رأيت من تعريضهم بالسفر للتشتت، وإن أر ذلك من قبلى اوجههم إليك مع الثقة من رسلى إن شاء الله. والسلام)).

وحينما أحس المأمون بقرب الخطر بعث برسالة أخرى لأخيه الأمين مبينا له فداحة الفرقة بين الأخوة، ما يؤدى لسريان التشتت لبقية جسد الأمة التى تؤلمها معاناة بعض أعضائها فينشر الداء إلى بقية البدن الواحد حيث كتب!

((أما بعد فإن أمير المؤمنين كأعضاء البدن، يحدث العلة فى بعضها فيكون كره ذلك مؤلما لجميعها وكذلك الحدث فى المسلمين يكون فى بعضهم فيصل كره ذلك إلى سائرهم للذى يجمعهم من شريعة دينهم، ويلزمهم من حرمة أخوتهم ثم ذلك من الأئمة أعظم للمكان الذى به الأئمة من سائر أممهم، وقد كان من الخبر ما لا أحسبه إلا سيعرب عن محنته، ويسفر عما استتر من وجهه، وما اختلف مختلفان فكان أحدهما مع أمر الله إلا كان اول معونة المسلمين وموالاتهم فى ذات الله وأنت يرحمك الله من الأمر بمرأى ومسمع وبحيث إن قلت أذن لقولك، وإن لم تجد القول

---

(١) نفسه.

مساغاً فأمسكت عن مخوف اقتدى فيه بك، ولن يضيع على الله ثواب الإحسان مع ما يجب علينا بالإحسان من حقك، ولحظ حاز لك النصيبين أو أحدهما أمثل من الإشراف لأحد الحظ)).

ولم تكن تلك الرسائل السياسية المتعددة المتداولة بين الأمين والمأمون منذرة بقرب الخطر والتى ذكرها الطبرى فى تاريخه، وهى كل الرسائل التى تبادلها الأخوان فحسب، إنما ذكر الدينورى رسالة أخرى للمأمون متممة ومؤكدة لسابقاتها اللاتى ذكرهن الطبرى، إلا أنها تكشف ملابسات الأمر بدقة وتوجز الحدث حيث أورد فيها قوله الذى كتبه للأمين رداً على طلبه فى أن يقدم إليه ليكون مجرد مستشار له لكى يتنازل عما فى يده من ولايات بطريقة ذكية، وهو[١]:

((أما بعد. فإن الإمام الرشيد ولآنى هذه الأرض على حين كلب من عدوها، وهى من سدها وضعف جنودها ومتى أخللت بها، اوزلت عنها، لم آمن انتقاض الأمور فيها وغلبةأعدائها، بما يصل ضرورة إلى أمير المؤمنين حيث هو، فرأى أمير المؤمنين فى أنلا ينقض ما أبرمه الإمام الرشيد)).

فمن خلال كلمات يسيرة وجمل قصيرة فند المأمون فى كتابه ملخص بداية الحدث وأسباب المأساة ومبررات رفض المأمون لطلب الأمين الذى يراه ظالماً طالما نقض ما عقده لهما والدهما الخليفة القوى الرشيد، فيبدو أن بطانة كل منهما قد أوردتهما موارد الهلاك لأن كل واحد منهما خاف أن يبادره الآخر بالغدر. فقام هو بالمبادرة والخديعة.

وعلى الرغم من كثرة الرسائل المتداولة بين الأمين والمأمون إلى حد يبين أن الحرب الكتابية بينهما قد بدأت وطالت قبل اندلاع الحرب العسكرية، إلا أن أسباب هذا الخلاف الخطير قد تلخصت فى أمرين: أولهما إلحاح الأمين على المأمون أن يتخلى عما وهبه الرشيد، ثانيهما: أن يعزله ويولى ابنه ولياً للعهد، حيث

---

[١] الأخبار الطوال: الدينورى ص ٣٩٤.

وضحت المراسلات السياسية ذلك، فحينما بعث الأمين إلى المأمون فى طلب البيعة لابنه موسى، ووجه إليه فى ذلك كتب المأمون جواب كتابه[١]:

((أما بعد فقد انتهى إلى كتاب أمير المؤمنين منكراً لإبائى منزلة تهضمنى[٢] بها، وأرادنى على خلاف ما يعلم من الحق فيها، ولعمرى إن أورد أمير المؤمنين موارد النصفة فلم يطالب إلا بها، ولم يوجب نكرة تركها، لانبسطت بالحجة مطالع مقالته ولكنت محجوجا بمفارقة ما يوجب من طاعته، فأما وأنا مذعن بها، وهو على ترك إعمالها، فأولى به أن يدير الحق فى أمره، ثم يأخذ به ويعطى من نفسه، فإن صرت إنى الحق فرغت عن قلبه، وإن أبيت الحق قام بمعذرته وأما ما رعد من بر طاعته، وأوعد من الوطأة بمخالفته فهل أحد فارق الحق فى فعله فأبقى للمتبين موضع ثقة بقوله؟ والسلام)).

فهذا السبب هو بداية اشتعال الشرارة فى معركة الأخوين لأن المأمون أحس بخطورة وضعه فأقدم على خلع أخيه قبل أن يخلعه، لا سيما بعد أن يئس من صلاح الأمر بينهما، فقد سعى الأمين فى خلع أخيه المأمون عن طريق الحيلة، حيث أنه لما عزم الأمين على هذا الخطب الجلل، اشار عليه كتابه ووزراؤه أن يكتب إليه يعلمه حاجته إليه، وما يحب من قربه والإستعانة برأيه ويسأله القدوم إليه فقال له وزيره الفضل بن الربيع: القول ما قالوا يا أمير المؤمنين، قال فليكتب بما رأى، فكتب إليه[٣]:

((أما بعد، فإن أمير المؤمنين روى[٤] فى أمرك. والموضع الذى أنت فيه من ثغرك، وما يؤمل فى قربك من المعاونة والمكانفة على ما حمله الله وقلده من أمور عباده وبلاده، وفكر فيما كان أمير المؤمنين للرشيد أوجب لك سن الولاية وأمر به من إفرادك على ما تصير إليك منها، فرجا أمير المؤمنين أن لا يدخل عليه

---

[١] تاريخ الطبرى: ١٠/١٥٤.

[٢] إبائى منزلة تهضمنى: رفضى لمكانة تظلمنى.

[٣] تاريخ الطبرى: ١٠/١٥٦.

[٤] روى فى أمرك: أى تفكر وتدبر.

وكف[١] فى دينه، ولا نكث فى يمينه، إذ كان إشخاصه إياك فيما يعود على المسلمين نفعه، ويصل إلى عامتهم صلاحه وفضله وعلم أمير المؤمنين عن مكانك بالقرب منه أسد للثغور وأصلح للجنود وأكد للفئ وأرد على العامة من مقامك ببلاد خراسان منقطعا عن أهل بيتك، متغيباً عن أمير المؤمنين، وما يجب الاستمتاع به من رأيك وتدبيرك.

وقد رأى أمير المؤمنين أن يولى موسى ابن أمير المؤمنين فيما يقلده من خلافتك ما يحدث إليه من أمرك ونهيك فأقدم على أمير المؤمنين على بركة الله وعونه، بأبسط أمل، وأفسح رجاء، وأحمد عاقبة وأنفذ بصيرة، فإنك أولى من استعان به أمير المؤمنين على أموره، واحتمل عنه النصب فيما فيه صلاح أهل بيته وذمته، والسلام)).

فبذلك كانت النهاية المريعة بين الأخوين وكان ضحيتها الأمين الذى قتله طاهر بن الحسين قائد جند المأمون بعد أن هزمت جيوشه جنود الأمين وتخلى عنه أعوان الأمس وحلفاؤه بعد أن أوردوه فى مهاوى الردى، كما نجحت بطانة المأمون فى اجتثاث الأمين بقسوة لا مثيل لها رغم استسلامه فى نهاية المطاف ولكنه حسم السياسة والمصالح.

ونستكشف من هذه المراسلات المهمة بين الأخوين أن بطانة كل منهما قد لعبت دوراً خطيراً فى إثارتهما على بعضهما، فبطانة الأمين هى التى حرضته على عزل أخيه وخاصة المأمون هى التى حرضته على خلع أخيه من الخلافة وها هو أحد الأدلة أمامنا، يظهر من خلال رسالة بعثها المأمون إلى أحد وزراء الأمين ممن حرصوا على عزل المأمون عن ولاية العهد وهو الوزير العباسى على بن عيسى بن ماهان، حيث كتب المأمون إليه فيها[٢]:

---

[١] الوكف: العيب والإثم والفساد والضعف.

[٢] تاريخ الطبرى: ١٠/١٥٤.

((أما بعد: فإنك في ظل دعوة لم تزل أنت وسلفك بمكان ذب[١] عن حريمها وعلى عناية يحفظها ورعاية لحقها توجبون ذلك لأئمتكم وتعتصمون بحبل جماعتكم وتعطون بالطاعة من أنفسكم وتكونون يداً على أهل مخالفتكم وحزبا وإخواناً لأهل موافقتكم، تؤثرونهم على الآباء والأبناء، وتتصرفون فيما تعرفوا فيه من منزلة شديدة ورخاء لا ترون شيئاً أبلغ في صلاحكم من الأمر الجامع لألفتكم ولا أجرى لبوارکم[٢] مما دعا بشتات كلمتكم، ترون من رغب عن ذلك جائزاً عن القصد وعن أمه على منهاج الحق، ثم كنتم على منهاج الحق[٣]، ثم كنتم على أولئك سيوفاً من سيوف نقم الله، فكم من أولئك قد صاروا وديعة مسبعة وجزراً جامدة[٤] قد سفت الرياح في وجهه، وتداعت السباع إلى مصرعه، غير ممهد ولا موسد، قد صار إلى أمة الضلال، وغير عاجل حظه ممن كانت الأئمة تنزلكم لذلك بحيث أنزلتم أنفسكم من الثقة بكم في أمورها، والتقدمة في آثارها، وأنت مستشعر[٥] دون كثير من ثقاتها وخاصتها، حتى بلغ الله بك في نفسك إن كنت قريع[٦] أهل دعوتك والعلم القائم بمعظم أمر أمتك، عن قلت أدنو دنوا، وإن أشرت أقيلوا أقبلوا، وإن أمسكت وقفوا وقروا وئاما[٧] لك واستنصاحاً، وتزداد نعمة مع الزيادة في نفسك، ويزدادون نعمةمع الزيادة لك بطاعتك، حتى حللت المحل الذى قربت به من يومك وانقرض فيما دونه أكثر مدتك لا تنتظر بعدها إلا ما يكون ختام عملك: من خير فيرضى ما تقدم من صالح فعلك، أو خلاف فيضلله متقدم سعيك، وقد ترى يا أبا يحيى حالاً عليها جلوت[٨] أهل نعمتك والولاة القائمة بحق إمامتك من طعن في

---

[١] الذب: الدفع. والحريم: ما تحميه وتقاتل عنه.

[٢] البوار: الهلاك.

[٣] القصد: استقامة الطريق. وأمه: قصده. والمنهاج: الطريق الواضح.

[٤] أرض مسبعة: كثيرة السباع. وتركوهم جزرا للسباع: أى قطعا. وجامدة: أى ليس بها حركة.

[٥] مستشعر: الشعار هو: الثوب الذى يلى الجسد والمراد: أنت مقرب ومؤثر لدى الأئمة.

[٦] القريع: السيد.

[٧] الوئام والمواءمة: الموافقة والملاءمة.

[٨] جلوت: أى كشفت.

عقيدة كنت القائم بشدها، وبعهود توليت معاقد أخذها، يبدأ فيهـ بالأخصين حتى أفضى الأمر إلى العامة من المسلمين، بالأيمان المحرجة[١] والمواثيق المؤكدة وما طلع مما يدعو إلى نشر كلمة وتفريق أمة وشت جماعة وتتعرض به لتبديل نعمة، وزوال ما وطأت الأسلاف من الأئمة ومتى زالت نعمة من ولاة أمركم وصل زوالها إليكم في خواص أنفسكم ولن يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وليس الساعي في نشرها بساع فيها على نفسه، دون السعي على حملها القائمين بحرمتها، قد عرضوهم أن يكونوا جزراً لأعدائهم، وطعمة قوم تتظفر مخالبهم في دمائهم، ومكانك المكان الذي إن قلت رجع إلى قولك، وإن أشرت لم تتهم في نصيحتك ولك مع إيثار الحق الحظوة عند أهل الحق ولا سواء من حظي بعاجل مع فراق الحق فأوبق[٢] نفسه في عاقبته ومن أعان انحق فأدرك به صلاح العاقبة ومع وفور الحظ في عاجلته.

وليس لك ما تستدعي ولا عليه ما تستعطف ولكنه حق من حق احسابك يجب ثوابه على ربك، ثم على من قمت الحق فيه من أهل إمامتك فإن أعجزك قول أو فعل فصر إلى الدار التي تأمن فيها على نفسك وتحكم فيها برأيك وتجاوز إلى من يحسن تقبلا لصالح فعلك، ويكون مرجعك إلى عقدك واموالك ولك بذلك الله، وكفى بالله وكيلا وإن تعذر ذلك بقية على نفسك، فإمساكاً بيدك وقولا بحق ما لم نخف وقوعه بكرهك فلعل مقتديا بك ومغتبطاً بنهيك ثم اعلمني رأيك أعرفه إن شاء الله)).

فهذه رسالة استنكارية من المأمون إلى أحد الجاحدين لنعم الدولة العباسية عليهم، يستخدم فيها أسلوب الوعد والوعيد والتذكير بما هو فيه من خيرات سابغة قد يزيلها الجمود فيطلب منه أن يكون مع الحق أو أن يمسك عن المشاركة في عداوته التي ستكون عواقبها عليه وخيمة وفي خاتمة الرسالة يعطيه فرصة الرد والتراجع بكل تعقل وتحلم.

---

[١] التوثيق: من التريج وهو التضيق:أي التي لا يجد فيها من أخذت عليه سبيلا إلى النكث.

[٢] أوبق: أي أهلك.

ورغم تلك القصة الأليمة بين الأخوين والتى تعد ثلمة فى تاريخ الدولة العباسية إلا أن لها بعض التبعات التى أبرزت الجانب الإنسانى فى شخصية المأمون ويتبين ذلك فى موقفه تجاه أم الأمين زبيدة زوجة هارون الرشيد التى ابتليت فى نفسها وابنها وممتلكاتها وحياتها، فما كان منها إلا أن كتبت إلى المأمون تستعطفه قائلة[١]:

((كل ذنب ياأمير المؤمنين- وإن عظم - صغير فى جنب عفوك، وكل زلل- وإن جل- حقير عند صفحك، وذلك الذى عودك الله فأطال مدتك، وتمم نعمتك، وأدام بك الخير، ورفع بك الشر.

هذه رفعة الواله[٢] التى ترجوك فى الحياة لنوائب الدهر، وفى الممات لجميل الذكر فإن رأيت أن ترحم ضعفى واستكانتى[٣] وقلة حيلتى، وأن تصل رحمى وتحتسب فيما جعلك الله طالباً، وفيه راغباً، فافعل. وتذكر[٤] من لو كان حيا لكان شفيعى إليك)).

فكتب إليها المأمون رداً ينضح بالعقل والأدب ورد الجميل. يقول فيه:

((وصلت رقعتك يا أماه، حاطك[٥] الله وتولاك بالرعاية ووقفت عليها وساءنى- شهد الله- جميع ما أوضحت فيها، ولكن الأقدار نافذة والأحكام جارية، والأمور متصرفة والمخلوقون فى قبضتها لا يقدرون على دفاعها، والدنيا كلها إلى شتات[٦] وكل حى إلى ممات والغدر والبغى حتف الإنسان والمكر راجع إلى صاحبه[٧] وقد أمرت برد جميع ما أخذ لك، ولن تفقدى ممن مضى إلى رحمة الله إلا وجهه. وأنا بعد ذلك على أكثر مما تختارين، والسلام)).

---

[١] جمهرة رسائل العرب ٣/٣١٤، ٣١٥.

[٢] واله: شديدة الحزن والجزع، على ابنها وما آل إليه حالها.

[٣] الاستكانة: الخضوع والذل.

[٤] تعنى: زوجها والده هارون الرشيد.

[٥] حاطه: حفظه وصانه.

[٦] الشتات: التفرق.

[٧] يعرض بالأمين.

فهذه الرسالة الإنسانية للمأمون وإن كانت تتبع الرسائل السياسية السابقة إلا أنها تفوح بشذى عاطفة حسن الولاء لزبيدة أم الأمين، ومرضعة المأمون وزوج الرشيد وابنة عمه، فهو يخاطبها (يا أماه) وكأنه بذلك يكفر عن جزء من ذنبه العظيم الذى يتنصل منه ويوضح أنه لم يكن يتمناه إلا أنه مضطر إليه ومتألم بأسبابه.

ومن الرسائل السياسية المهمة والتى تكشف بعض خفايا السياسة العباسية الداخلية: رسالة المأمون التى خلع فيها أخاه القاسم ابن الرشيد الذى قيل عنه أنه ساقط الهمة دنى النفس، وكان يبلغه عنه كثيراً ما يكره ويوقعه فى حرج شديد، فكان ينهاه ولكنه يأبى أن ينتهى، مما اضطره أن يكتب إلى وزيره هرثمة بن أعين راغباً فى خلعه، يقول فى كتابه هذا[1]:

((أما بعد: فإن أمير المؤمنين يستوفق الله عزوجل فى جميع أموره ويستخيره فيها، خاصها وعامها لطيفها وجليلها استخارة من يوقن أن البركة وخيره البدء والعاقبة فى قضائه: وما يلهمه من إرشاد وتسديد رأى وإثبات صواب.

وقد رأى أمير المؤمنين عندما استخار الله تبارك اسمه فيه من أمر القاسم بن الرشيد فيما كان إليه من ولاية العهد- خلعه عن ذلك وصرفه عنه، فأظهر ذلك فيمن يحضرك، وأمر بالكتاب إلى العمال فى نواحى عملك وثغورك وولاة الأمصار.

وقد أمل أمير المؤمنين أن يكون ذلك توفيقاً من الله تبارك اسمه. ورشداً ألهمه إياه إذ كان توفيقه. وعليه معوله، وإليه رجوعه فيما يبرم ويمضى. فامتثل ما حده لك أمير المؤمنين، وانتبه إليه واكتب بما يكون منك فيه إن شاء الله)).

ولا نعلم علة عدم ذكر البسملة فى تقدمة الرسائل المأمونية، مع إنه جاء فى صبح الأعشى: إن المأمون كان يكتب فى أول عنوان كتبه: بسم الله الرحمن الرحيم. فكانت تكتب قبل اسم المكتوب إليه والمكتوب عنه[2]. وربما حذفها البيهقى

---

[1] المحاسن والمساوئ: للبيهقى ٢٨٤.

[2] صبح الأعشى للقلقشندى- ٥٣/٦.

فى محاسنه ومساوئه، واكتفى بكلمة (أما بعد) التى تدل أن كلاماً يسبقها من بسملة ودعاء واسم المكتوب إليه والمكتوب عنه كما ذكر القلقشندى، وربما يدل الأمر على شدة غضبه على أخيه القاسم، حيث يبدو أن سوء أحوال أبناء الرشيد من أخوة المأمون استمرت تقلقه حتى بعد مقتل اخيه الأمين، مما اضطر معه أن يعزل أخاه القاسم عن ولاية العهد، لأن تولى أمور المسلمين كما يراه المأمون مسؤولية عظيمة أمام الخالق وخلقه معاً وأمانة فى عنق من يتولى ومن يوليه معاً.

ومن الرسائل السياسية الخطيرة والتى احتفظ بها التاريخ الإسلامى عبر عصوره المتعاقبة: رسالة سياسية طويلة كتبها المأمون حين بايع على بن موسى العلوى بالرضى بالخلافة من بعده، نذكرها هنا لأن لها أهمية سياسية كبرى وتقوم على أصول الرسائل المحكمة وتكشف لنا المناخ الأدبى السياسى فى عصر الخليفة المأمون.

حيث نراه يبتدئ تلك الرسالة الخطيرة بالحديث عن بعثة نبى الهدى محمد صلى الله عليه وسلم ومدى أهميتها والحكمة الإلهي منها، فيقول:[١]

((بسم الله الرحمن الرحيم، هذا "كتبه" عبد الله بن هارون الرشيد أمير المؤمنين "بيده" لعلى بن موسى بن جعفر ولى عهده، أما بعد.

فإن الله عزوجل اصطفى الإسلام ديناً، واصطفى له من عباده رسلاً. دالين عليه يبشر أوهم بآخرهم ويصدق تاليهم ماضيهم حتى انتهت نبوة الله إلى محمد صلى الله عليه وسلم على فترة من الرسل. ودروس من العلم وانقطاع من الوحى،واقتراب من الساعة. فختم الله به النبيين، وجعله شاهداً لهم، ومهيمناً عليهم، وأنزل عليه كتابه العزيز الذى ((لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ))[٢]. فأحل وحرم ووعد وأوعد وحذر وأنذر وأمر به ونهى. ولتكون له الحجة البالغة على خلقه و((لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ

---

[١] صبح الأعشى: للقلقشندى ٥٣/٦.

[٢] سورة فصلت آية ٤٢.

اللّه لَسميعٌ عليمٌ))[١]. فبلغ عن الله رسالته ودعا إلى سبيله بما أمره به من الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن ثم بالجهاد والغلظة حتى قبضه الله إليه واختار له ما عنده صلى الله عليه وسلم)).

ثم يتحدث المأمون عن الخلفاء بشكل عام من حيث واجباتهم تجاه رعيتهم وحقوقهم المتوجبة لهم، وكل ذلك تمهيد جيد لما يريد المأمون أن يوصله للمسلمين فيكمل رسالته قائلا:

((فلما انقضت النبوة وختم الله بمحمد صلى الله عليه وسلم الوحي والرسالة جعل قوام الدين ونظام أمر المسلمين بالخلافة وإتمامها وعزها والقيام بحق الله فيها بالطاعة التي تقام بها فرائض الله وحدوده وشرائع الإسلام وسننه ويجاهد بها عدوه فعلى خلفاء الله طاعته فيما استحفظهم واسترعاهم من دينه وعباده. وعلى المسلمين طاعة خلفائهم ومعونتهم على إقامة حق الله وعدله. وأمن السبل وحقن الدماء وصلاح ذات البين وجمع الألفة وفي إخلال ذلك اضطراب حبل المسلمين واختلالهم واختلاف ملتهم وقهر دينهم واستعلاء عدوهم وتفرق الكلمة وخسران الدنيا والآخرة)).

وبعد الإجمال يعمد المأمون إلى التفصيل فيوضح بإسهاب دور من يتولى أمر المسلمين لا سيما وهي أمانة عظيمة ثقيلة وكأن المأمون يوحي بكل ذلك لمن رشحه خليفة له وتزكية له وإقناعاً للآخرين بحسن اختياره إياه فيقول متمما كتابه:

((فحق على من استخلفه في أرضه واتمنه على من خلفه أن يؤثر ما فيه رضا الله وطاعته ويعدل فيما الله وإفقه عليه وسائله عنه. ويحكم بالحق ويعمل بالعدل فيما حمله الله وقلده. فإن الله عزوجل يقول لنبيه داود عليه السلام (يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ)[٢]

---

[١] سورة الأنفال آية ٤٢.

[٢] سورة ص ٢٦/٣٨.

وقال عزوجل: (فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)[1]. وبلغنا أن عمر بن الخطاب قال: "لو ضاعت سخلة بجانب الفرات لتخوفت أن يسألني الله عنها". وأيم الله، إن المسؤول عن خاصة نفسه، الموقوف على عمله، فيما بين الله وبينه لمعترض لأمر كبير، وعلى خطر عظيم فكيف بالمسؤول عن رعاية الأمة. وبالله الثقة وإليه المفزع والرغبة في التوفيق مع العصمة، والتسديد والهداية إلى ما فيه ثبوت الحجة والفوز من الله بالرضوان والرحمة.

وأنظر الأئمة لنفسه وأنصحهم في دينه وعباده وخلافته في أرضه من عمل بطاعة الله وكتابه وسنة نبيه عليه السلام في مدة أيامه. واجتهد وأجهد رأيه ونظره فيمن يوليه عهد من يختاره لإمامة المسلمين ورعايتهم بعده، وينصبه علماً لهم، ومفزعاً في جميع ألفتهم ولم شعثهم وحقن دمائهم والأمن بإذن الله من فرقتهم وفساد ذات بينهم واختلافهم، ورفع نزع الشيطان وكيده عنهم فإن الله عزوجل جعل العهد بالخلافة من تمام أمر الإسلام وكماله وعزه وصلاح أهله، وألهم خلفاءه من توسيده لمن يختارونه له من بعدهم ما عظمت به النعمة وشملت منه العاقبة ونقض الله بذلك مر[2] أهل الشقاق والعداوة والسعي في الفرقة والرفض للفتنة))

ثم دخل المأمون إلى لب الموضوع المقصود وهو اختياره الرضا ولياً لعهده على العكس من بقية الخلفاء الذين يولون أبناءهم وإخوانهم من بعدهم ويبين الحكمة العظيمة من ذلك الاختيار الذي لم يتم إلا بعد أخذ كافة الاحتياطات الضرورية كالاستخارة والاستشارة وعمق التفكير والرغبة في إرضاء الخالق وإطفاء نيران الفتن، فيقول في ختام رسالته التي يوجهها لعموم رعيته:

((ولم يزن أمير المؤمنين منذ أفضت إليه الخلافة فاختبر بشاعة مذاقها، وثقل محملها وشدة مئونتها وما يجب على من تقلدها من ارتباط طاعة الله ومراقبته فيما حمله منها فأنصب بدنه وأسهر عينه وأطال فكره فيما فيه عز الدين وقمع المشركين وصلاح الأمة، ونشر العدل، وإقامة الكتاب والسنة: ومنعه ذلك من

---

[1] سورة الحجر ٩٢/١٥.

[2] المر (بفتح الميم): هو الحبل.

الخفض والدعة بهنى العيش: علماً بما الله سائله عنه ومحبة أن يلقى الله مناصحه في دينه وعباده ومختاراً لولاية عهده ورعاية الأمة من بعده، أفضل من يقدر عليه في دينه وورعه وعلمه، وأرجاهم للقيام بأمر الله وحقه، مناجياً لله بالاستخارة في ذلك، ويسأل إلهامه ما فيه رضاه وطاعته في ليله ونهاره ومعملاً في طلبه والتماسه من أهل بيته سن ولد عبد الله بن العباس وعلي بن أبي طالب فكره ونظره ومقتصراً فيمن علم حاله ومذهبه منهم على علمه وبالغاً في المسألة عمن خفي عليه أمره جهده وطاقته حتى استقصى أمورهم بمعرفته وابتلى أخبارهم مشاهدة وكشف ما عندهم مساءلة فكانت خيرته بعد استخارته لله واجتهاده نفسه في قضاء حقه وبلاده، ومن البيتين جميعاً (علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب: لما رأى من فضله البارع وعلمه الناصع وورعه الظاهر وزهده الخالص وتخليه من الدنيا وتسلمه من الناس وقد استباه له ما لم تزل الأخبار عليه متواطئة والألسن عليه متفقة والكلمة فيه جامعة ولما لم يزل يعرفه به من الفضل يافعاً وناشئاً وحدثاً رمكتهلاً فعقد له بالعقد والخلافة إيثاراً لله والدين، ونظراً للمسلمين وطلباً للسلامة وثبات الحجة والنجاة في اليوم الذي يقوم الناس فيه لرب العالمين)).

ونلاحظ أن هذه الرسالة في مجملها قد غلب عليها التفكير المنطقي المتعقل المنظم لذلك فقد قلت الصور البلاغية والفنية فيها، مقارنة بالرسائل البعيدة عن السياسة لذلك فقد تدرج منطقياً في كتابة رسالته رغبة في الإقناع وقوة التأثير مستخدماً أسلوب الرمز والتورية[1].

ومن ضمن الرسائل السلطانية العباسية نوع آخر يدخل في باب الرسائل الإخوانية ولكنها لا تخرج عن نطاق الرسائل السياسية، مثل تلك المراسلات التي تمت بين المأمون ووزيره الفضل بن سهل، الذي كان خليفةيكن له الحب والود

---

[1] انظر: قصر المأمون وأثره على العصر العباسي: د. سامي عابدين- ص ٢٦٤

الشديدين إلى حد أنه تزوج ابنته "بوران"، ومثل تلك الرسائل رسالته التى يحمد لـه فيها كفايته وإخلاصه، كتب فيها[١]:

((أما بعد، فإن أمير المؤمنين إذا فكر فى نعمه الله عليه منذ استخلفه فـى الأرض، واستحفظه دينه وعباده، وألهمه من طاعته، وجعل عليه رأيه وهمته ونيته فى إقامة حقه، وبسط عدله، والعمل بفوائضه وأحكامه، وعضده به منـك، وجعـل عندك من النية فى مساعدته ومعاونته على ما فيه القربة إلى الله عزوجـل، ودرك رضوانه والقيام بما استكفاه من أمور ونجح نى السعى فى إعزاز الـدين وتأييـده. ووقم[٢] الشرك وتدويخه، وتابع له من الفتوح على يدك فى صنوف أعدائـه، مـن شرق الأرض وغربها، وسهلها وجبلها، وسهل له البلدان المستصعبة على غيـره، حتى دان له عظماؤها، وانقادت له رؤساؤها، وقيدت إليه أشرافها، وحملـت إليـه أربابها، رأى أنه قد عضده منك بما لا تبلغ الأوهام وصـفه، ولا العقـول كنهـه، فالحمد لله رب العالمين على ذلك حمداً كثيراً وشكرا دائماً)).

وتستمر المودة بين المأمون ووزيره الفضل، وبالتالى تسـتمر المراسـلات الإخوانية ضمن إطار الرسائل السياسية فهو من أكبر الموالين له، حيث نجد رسالة تعزية أدبية كتبها المأمون لوزيره المقرب إليه محبة ومكانة، نورد فصلاً من كتابـه هذا الذى تظهر فيه عاطفة قوية لا تخفى على قارئ الرسـالة التـى يقـول فيهـا بعبارات باكية وألفاظ حزينة[٣]:

((وقد جرى من قضاء الله عزوجل على أبى الفضـل رحمـه الله، بعقـب المصيبة بذى الرياستين رحمه الله، ما عظم مبلغه من أمير المؤمنين، ووصل إليـه من مضض وألم هده، لأنسه كان بمكانه، ومحلهِ كان من قلبه، ولمعرفته بموقع ذلك عندك، وما تجدد لك من الوحشة والوجد واللوعة لوفاته، لأن المصائب لو تـأخرت عن أمير المؤمنين وعنك بعد المصيبة بذى الرياستين رضى الله عنه عـدة سـنين،

---

[١] جمهرة رسائل العرب: ٣٥٧/٣.

[٢] وقم: قهر وأذل.

[٣] جمهرة رسائل العرب ٣٥٧/٣.

لما عفا أثرها، ولا اندمل كلمها[١] ولا سكن روعها ولا موقعها من فكره، فأعظم الله لأمير المؤمنين الأجر فيه على عظم الرزية وأحسن عقباه وعقباك منه، وربط[٢] على قلبه وقلبك، وعزم لك من الصبر على ما يرضيه عنك، وسد الله كل ثلمة انثلمت عليك، ورحم الله أبا الفضل رحمة تأتى من وراء زلله، وتعفى على فرطات لسانه ويده، آنس الله أمير المؤمنين ببقائك، ودفع الأسواء والمكاره عنك بقدرته)).

ونرى المشاركات الوجدانية من المأمون الخليفة الأديب لوزيره ونسيبه مستمرة بنفس الحماس العاطفى والأسلوبى، وذلك حينما أرسل له رسالة إخوانية يعزيه فيها بموت أخيه الوزير ذى الرياستين، كتب فيها[٣]:

((وقد أبقى الله لأمير المؤمنين خلفا من خير سلف، افتقاداً منك لأثر ذى الرياستين- نضر الله وجهه ورحمه- وسلوكا منك لمذهبه وكفايته لأمير المؤمنين، وعائدته[٤] عنه واجتهاده فى طاعته، ومعاونته على نيته، وابتذالك نفسك فى إعزاز دولته وجهاد عدوه، والمحاماة عن سلطانه، وحلولاً من قلب أمير المؤمنين محله فى علوه وارتفاع مكانه، إذ كنت شفيقه وشبيهه، والجارى عند أمير المؤمنين فى الأنس والثقة والتقديم مجراه)).

ونلاحظ على هذه الرسالة وسابقتها من رسائل المأمون لوزيره أنها تحمل طابع السياسة وإن غلف بغلاف الأخوة المشرق حيث جعل الخليفة من ثناءه على سجايا الوزير الراحل أملاً فى أن يتحلى بها الوزير الباقى لكى يكون خير خلف لخير سلف كان نعم المعين ونعم الباذل ونعم المنافح عن دولة العباس الإسلامية.

كما نجد نوعاً مهماً من الرسائل السياسية وهو ما يختص بعدو المسلمين الخارجى الأكبر، ونعنى بها دولة الروم الصليبية، وهىفى واقع الحال نماذج مشرفة للإسلام والمسلمين، لأنها تحوى معانى العزة والكرامة والقوة والاستبسال،

---

[١] كلمها: جرحها.

[٢] ربط على قلبه: ألهمه الصبر.

[٣] جمهرة رسائل العرب ٣/٣٥٦.

[٤] العائدة: المنفعة.

ونجد مثل هذه الرسائل عند الخليفة المأمون، حينما أرسل إليهم ملكهم رسالة موجزة تتسم بالموادعة يطلب فيها السلم والمهادنة. فما كان من المأمون إلا أن رد عليه بكتاب قال فيه[١]:

((أما بعد، فقد بلغنى كتابك فيما سألت من الهدنة، ودعوت إليه من الموادعة، وخلطت فيه من اللين والشد مما استعطفت به من سراح[٢] المتاجر، واتصال المرافق، وفك الأسارى، ورفع القتل والقتال، فلولا ما رجعت إليه من أعمال التؤدة، والأخذ بالحظ فى تقليب الفكرة، وألا أعتقد الرأى فى مستقبله إلا فى استصلاح ما أوثره فى معتقبه، لجعلت جواب كتابك خيلاً تحمل رجالاً من أهل البأس والنجدة والبصيرة، ينازعونكم عن ثكلكم، ويتقربون إلى الله بدمائكم، ويستقلون فى ذات الله ما نالهم من ألم شوكتكم، ثم أوصل المتاجر، واتصال المرافق، وفك الأسارى، ورفع القتل والقتال، فلولا ما رجعت إليه من التؤدة والأخذ بالحظ فى تقليب الفكرة، وألا أعتقد الرأى فى مستقبله إلا فى استصلاح ما أوثره فى معتقبه لجعلت كتابك خيلاً تحمل رجالاً من أهل البأس والنجدة والبصيرة ينازعونكم عن ثكلكم[٣]، ويتقربون إلى الله بدمائكم ويستقلون فى ذات الله ما نالهم من ألم شوكتكم، ثم أوصل إليهم من الأمداد، وأبلغ لهم كافياً من العدة والعتاد، هم أضما إلى موارد المنايان منكم إلى السلامة، من مخوف معرتهم عليكم، موعدهم إحدى الحسنيين: عاجل غلبة، أو كريم منقلب، غير أنى رأيت أن أتقدم إليك بالموعظة التى يثبت الله بها عليك الحجة، من الدعاء لك، ولمن معك إلى الوحدانية، والشريعة الحنيفية[٤]، فان أبيت ففدية توجب ذمة، وتثبت نظرة[٥]، وإن تركت ذلك ففى يقين

---

[١] جمهرة رسائل العرب ٤٤٨/٣.

[٢] سراح: هو التسهيل، اسم مشتق من التسريح.

[٣] الثكل: الموت والهلاك.

[٤] الحنيفية: الاستقامة على ملة الإسلام.

[٥] النظرة: التأخير.

المعاينة لنعوتنا ما يغنى عن الإبلاغ فى القول، والإغراق فى الصفة، والسلام على من اتبع الهدى)).

فنرى فى هذه الرسالة القوية أنها تحمل المفردات التى استقاها من قواميس الشجاعة والتحدى التى ليس فيها أية مواربة أو تخوف أو استحياء من الحق. كما تحوى كل معانى الشرف والتمسك بالمكانة السامقة كما فعل والده الرشيد من قبله، وكما استن بهديه أخوه المعتصم من بعده، إلا أنهما قد أوجزا كلامهما فى توقيعين غاضبين، بينما أطنب المأمون فى رسالة وافية لأنه أراد أن يتبع الطريقة الإسلامية بتدرج سليم حيث عرض عليهم أولا الدخول فى عقيدة التوحيد أو دفع الجزية المطلوبة شرعاً من الذميين، وإلا فليس أمام المأمون إلا الخيار الثالث الذى يتشوق إليه كل جندى مسلم مثلما جنودهم يتمسكون بأهداب الحياة الزائلة.

ولعل نوعية المرسال الرومانى هو الذى أوحى لكل خليفة من الخلفاء الثلاثة بنوعية الرد إضافة إلى اختلاف شخصياتهم فالرشيد اشتهر بالحزم وسرعة المواجهة والمعتصم اشتهر بحب الفروسية والجهاد، أما المأمون الذى مات شهيداً فيتصف بالأناة والحلم وإعطاء فرصة التوبة والمراجعة قبل العقاب.

وهكذا رأينا كيف كانت الرسائل عند الخلفاء العباسيين مكانتها فى القيام بحاجة الشؤون الديوانية والحضارية، فضلاً عن كونها مظهراً من مظاهر الجمال الفنى للغة العربية الفصحى وأسلوبها البليغ، وقد امتازت تلك الرسائل فى معظم الأحيان بسهولة الألفاظ المقاربة لأسلوب السهل الممتنع، وكانت لا تخلو فى كثير منها على صناعة بديعية وحسن بيان لكى تكون أبلغ تأثيراً فى المتلقى حيث تخدم معان عظيمة وأفكار خطيرة لأنها فى مجملها موجهة للأعداء، وذلك لتثبت قواعد الملك الجديد ضد الطامعين فيه من أعداء داخليين وخارجيين، فقد صار للكتاب دور خطير فى قمع الأهواء وردع الأعداء وإطفاء الفتن وتأليف القلوب فى تلك الحقبة المهمة من الزمان.

كما نلاحظ أن الرسائل السياسية إذا كانت متبادلة بين الخليفة العباسى وبعض أعدائه الألداء تكون قائمة على أسلوب الجدل والحوار وتعداد الحجج،

والإكثار من الأدلة، ومن ثم يغلب عليها التدرج المنطقى. فيكون الموقف الفنى فيها قائماً على ما فى اللغة من عناصر الوضوح والخطابية والتقريرية المباشرة. وطرح القضية المرادة بعيداً عن غرابة اللفظ أو تعقيد الصورة أو التكلف فى العرض[١].

والرسائل السياسية فى مجملها إما متبادلة وإما مفروضة ولكنها كانت وسائل إعلامية مهمة من وسائل الحكم والسلطان فى عصر الدولة الإسلامية العباسية العظمى، احتفظ بها التاريخ بعناية وتوثيق، دلالة عظم شأنها وإخبارها عن تفاصيل وأحداث دقيقة وخطيرة غيرت مجرى الزمان ومراتب أهله.

*****

[١] انظر: مستويات الحوار فى النثر العباسى: د. عبد الله التطاوى ص ٥٩-٦٠.

ثانياً
العهود والوصايا

ثانيا: العهود والوصايا:

وإذا كانت الرسائل تتسم فى أساليبها ومعانيها بالغلظة والشدة لأنها موجهة فى معظمها للأعداء أو المنافسين أو الخصوم فإن العهود تتسم بالجد والاعتدال والحرص لأنها موجهة للأبناء والاخوة والموالين الذين تربطهم بالكاتب علاقة مصلحة أو قرابة أو محبة.

وكانت كتابة العهود قبل العصر العباسى وجيزة مختصرة، ولكنهم زادوا فيها واخترعوا، فتحدثوا بما يجب للخليفة على الأمة، وما يجب على الأمة للخليفة، فبعد أن كانت تقتصر على الصيغة التقليدية "هذا ما كتبه عبد الله فلان إلى خاصة المسلمين وعامتهم أنى قد وليت عليكم فلاناً"، فرعت وفصلت المزايا التى جعلت الوالى مثلاً صاحب كفاية لتلك الوظيفة، وعدد البلدان التى يتناولها نفوذه، والوصايا بالأمور التى يأخذ بها الرعيةن وكانت المنشورات تقتصر على صيغة تقليدية موجزة، فزادوا فيها ووضعوا لها رسوماً، وأضيفت لفظة الإمام قبل أمير المؤمنين، وكذلك الصلاة على النبى بعد بحمد الله[1].

وأوضح صورة للعهود هى العهود السياسية التى يعهدها الأباء للأبناء ولاة لعهودهم وخلفاء للأمة من بعدهم، ويكتبونها بخط أيديهم ويشهدون الناس عليها، بل يحاولون تعليقها فى مكان عظيم بين كصدر الكعبة فهم يحرصون على توثيق وصاياهم تلك بالكتابة.

ومن نماذج العهود العباسية عهود الخلفاء لأبنائهم بالخلافة من بعدهم فها هو الخليفة المؤسس المنصور يبعث للأمصار يطالب بأخذ البيعة لابنه المحبوب المهدى، ويعدد مناقب ابنه رغبةمنه فى إقناع الناس بأحقيته وملاءمته للموقع الخطير، حيث كتب عنه فى عهده هذا:

((والمهدى – معشر المسلمين- فى عفافه وصلاحه وورعه وطبائعه وشيمه وحلمه ورأفته واستصلاحه واستبقائه وعفوه ومقدرته ورأيه ومكيدته وشوكته على عدوه وحسن تدبيره فى ولايته وسياسته لجنوده ورفقه وعدله وأدبه

---

[1] انظر: فى الأدب العربى القديم: د. محمد صالح الشنطى- ص ١٨٣.

وفقهه وفهمه ونجابته ويمن نقيبته[١] وتوسعة ذات يده واغتفاره وهديه، وحسن جزائه أهل الغناء[٢] عنه والبلاء معه، والطاعة له والسمع منه، ولينه وحزمه وعزمه، ووفائه وصدقه، هو المصطنع[٣] لولايتكم، والمتخير لسياستكم وإجتماع ألفتكم، وتمام نعمة الله عليكم، ولم يكن الله ليعد لهذه الأمور إلا مصطنعا فى رأيه، كاملاً فى فضله وسياسته قويا على طاعة الله ونصر دينه والذب عن حقه وملته.

وقد بايع أمير المؤمنين ومن قبله من أهل بيته وجنوده ورعيته للمهدى محمد ابن أمير المؤمنين ولعيسى بن موسى من بعد محمد المهدى مستبشرين ببيعتهم راغبين فيما صفقت[٤] عليه إيمانهم من تخير للذى كان يذكر فى الأمير من تمام نعمة الله عليهم مؤملين لما فى الأحاديث المأثورة من أهل الحق قبلهم موقنين بخيرة الله لهم، فإن اسم المهدى محمد ابن أمير المؤمنين واسم أبيه، والزمان الذى كان يذكر ذلك فيه والأمور التى تنسب إليه، والفتوح التى كانت تذكر أنها تفتح عليه فى أول أمره، ومبتدا زمانه- وقد رأيناها وعرفناها يشهد بعضها لبعض، متصلة على حالاتها، متوالية على ما ذكر فى الأحاديث منها يصدق الأول منها الآخر على مراتبها إن شاء الله، والأحايين التى تكون فيها، لا يخرم شئ منها عن شئ متلاحقة ملتئمة إن شاء الله ولا قوة إلا بالله- واصل هذه الطراف المنكرة والأعلام المقدمة بأصولها الجسيمة العظيمة التى ملأت الأرض نوراً وعدلاً وعزا لأهل الإسلام وظفرا وتأييداً لأهل الحق، ونصراً وفضلاً ونعمة من الله عليهم، ولم يحب أمير المؤمنين أن يخرج عيسى بن موسى من هذا الإل[٥] فعقد له من بعد محمد ابن أمير المؤمنين، وجعله ولى عهده، ونوى أمير المؤمنين الخير فى ذلك، واحتسب الأجر من الله عليه، ورجا صلاح الرعية.

---

[١] نقيبته: أى طبيعته.

[٢] أهل الغناء: أى المستغنيين.

[٣] المصطنع: أى المعد والمختار.

[٤] صفق يده بالبيعة: أى ضرب بيده على يده الأخرى. وذلك عند الموافقة والتأييد

[٥] الإل: العهد والميثاق.

فبايعوا باسم الله وعلى بركته وتوفيقه وتسديده، لمحمد ابن أمير المؤمنين بيعة رضوان من الله إن شاء الله، بصحة من نياتكم، وسلامة من صدوركم، ووفاء واستقامة بخير صفقة صفقت عليها ايمانكم، وأعظمها إن شاء الله وأتمها نعمة، وأحسنها عاقبة، وأبلغها فى طاعة الله منزلة، وأرفعها فى الخير درجة، فأبشروا بنعم مخبآت عاجلات وآجلات يعز الله بها دينكم ويتم بها النعمة عليكم، ويقمع بها الشيطان وجنوده وأبالسته، ويفل بها وحدهم ريوهن بها قوتهم، ويصرعهم فى كل موطن ويقتلهم فى كل مشهد فإنكم- معشر المسلمين- قد أخذتم فى توفيق الله إياكم وتسديده لكم، بطرف أمر فيما ألهمكم الله من بيعتكم للمهدى ابن أمير المؤمنين، سيؤديكم إلى النعم التى كانت توصف، والظهور الذى كان يذكر)).

ونلاحظ على هذا العهد أنه يرتكز على ثلاث ركائز أساسية، أول هذه الركائز هى ذكر مزايا شخصية من ارتضاه الخليفة ولياً لعهده، وتعداد مناقبه التى أهلته لذلك، والركيزةالثانية هى فرض هيبة الأسرة العباسية وتوضيح مكانتها الإسلامية، وطمأنة الرعية عامة وبقية آل عباس بأن ولاية العهد الثانية لعيس بن موسى الذى كان له حق الخلافة بعد المنصور. أما الركيزة الثالثة فهى استخدام الخليفة لأسلوب الوعد والتبشير لرعيته إن هم ارتضوا سابق عهده كل ذلك فى إطار لغوى قوى استخدم كل ألفاظ المعجم السياسى المتظلل بفئ نظرية الإسلام فى الحكم والسياسة.

وإذا كان العهد السابق نموذجاً لعهد السلطان لرعيته فهذا نموذج آخر من الخلف للسلف وهو عهود الآباء لأبنائهم وأولياء عهودهم لكى تكمل صورة ولاية العهد من جانبيها الاثنين معاً، أول نموذج للعهود والوصايا لدى خلفاء بنى العباس لأبنائهم ما نجده من عهد المنصور إلى ابنه المهدى بولاية عهده وخلافة المسلمين وهو[١]:

((هذا ما عهد به عبد الله أمير المؤمنين إلى المهدى محمد بن أمير المؤمنين، ولى عهد المسلمين، حين أسند وصيته إليه بعده واستخلفه على الرعية،

---

[١] تاريخ اليعقوبى: ٢/٢٧٢.

من المسلمين وأهل الذمة، وحرم الله وخزائنه وأرضه التى يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين. إن أمير المؤمنين يوصيك بتقوى الله فى البلاد والعمل بطاعته فى العباد، ويحذرك الحسرة والندامة، والفضيحة فى القيامة، قبل حلول الموت، وعاقبة الفوت حين يقول: رب لولا أخرتنى إلى أجل قريب. هيهات أين منك المهل وقد انقضى عنك الأجل... وتقول رب اجعنى لعلى أعمل صالحاً، فيومئذ ينقطع أهلك ويحل بك عملك، فترى ما قدمته يداك وسعت فيه قدماك، ونطق به لسانك، واسترخبت عليه جوارحك، ولحظت له عينك، وانطوى عليه غيبك، فتجزى عليه الجزاء الأوفى، إن شراً فشر وإن خيراً فخير.

فليكن تقوى الله من شأنك، وطاعته من بالك، استعن بالله على دينك، وتقرب به إلى ربك ونفسك فخذ منها، ولا تجعلها للهوى، ولن تعمل الشر قامعاً، فليس أحد أكثر وزرا، ولا أعظم مصيبة، ولا أجل رزية منك، لتكاتف منك أجمعون، وتكافئ على أفعال ولا تك من الظالمين، فإن الله عزوجل يقول: "إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ". فكأنى بك وقد أوثقت بين يدى الجبار وخذلك الأنصار، وأسلمك الأعوان، وطوقت بالخطايا، وقرنت بك الذنوب، حل بك الوجل وقعد بك الفشل، كلت حجتك وقلت حيلتك، وأخذت منك الحقوق واقتاد منك المخلوق فى يوم شديد هوله، عظيم كربه، تشخص فيه الأبصار لدى الحناجر كاظمين، ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع، فما عسيت أن يكون حالك يومئذ إذا خاصمك الخلق، واستقضى عليك الحق، إذ لا خصة تنجيك ولا قرابة تحميك، تطلب التباعة، ولا تقبل فيه الشفاعة ويعمل فيه بالعدل ويقضى فيه بالفصل، قال الله: "لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب". فعليك بالتشمير لدينك والاجتهاد لنفسك. فأفكك عنك، وبادر يومك، واحذر غدك واتق دنياك فإنها دنيا غادرة موبقة، ولتصدق الله نيتك وتعظم إليه فاقتك. وارغب إلى الله عزوجل فى الجهاد والمحاماة عن دينه وإهلاك عدوه بما يفتح الله على المسلمين ويمكن لهم فى الدين. وأبذل فى ذلك مهجتك ونجدتك ومالك وتفقد جيوشك ليلك ونهارك. واعرف

مركز خيلك ومواطن رحلك، وبالله فليكن عصمتك وحولك وقوتك وعليه فليكن ثقتك واقتدارك وتوكلك فإنه يكفيك ويغنيك وينصرك وكفى به مؤسداً ونصيراً)).

نلاحظ أن هذا العهد من الخليفة المنصور لابنه المهدى الذى كان يكن له الحب الشديد والذى يظهر هذه العاطفة الجمة فى هذا العهد الجامع الشامل، حيث يضم كثيراً من الحكم السياسية المهمة، التى يربطها (بتقوى الله تعالى) فى السر والعلن مع ذاته ومع رعيته فهى الفيصل فى كل شأن ويحثه على الجهاد فى سبيل الله تعالى لكى يحفظ بيضة المسلمين وحرماتهم، وليس هذا بغريب على المنصور الذى كان أول خليفة للدولة العباسية وما زالت الدولة فى عهده فى طور التأسيس العظيم، فحكمه -بلا ريب- قائم على الجهاد لرفع راية الإسلام فى ظلال دولة بنى العباس ونرى المنصور فى عهده هذا كما فى خطبته ورسائله يستدل بآيات الله الكريمات ويتكئ على الأسلوب الدينى الوعظى.

وإضافة لهذه الوصية الرسمية المكتوبة، أوصى الخليفة المنصور ابنه المهدى بعدة وصايا منطوقة قالها له بحضور بعض الرواة الثقات فقد ذكر الطبرى فى تاريخه وصية سلطانية قديرة أوصى بها السلف الخلف تنفع أن تكون وثيقة تكتب بماء الذهب وتعلق على صدر التاريخ ويأخذ بها كل من تولى أمراً من أمور المسلمين، لم يترك فيها المنصور شاردة ولا واردة من شئون الحكم إلا وذكرها، رابطاً إياها بالمضامين الإسلامية التى لا تصح الأمور الدينيوية إلا بها، وكان المنصور متوجهاً إلى مكة سنة ثمان وخمسين ومائة حيث قال لابنه المهدى عند وداعه إياه[1]:

((يا أبا عبد الله، إنى ولدت فى ذى الحجة ووليت فى ذى الحجة وقد هجس فى نفسى أنى أموت فى ذى الحجة من هذه السنة وإنما حدانى على الحج ذلك فاتق الله فيما أعهد إليك من أمور المسلمين بعدى، يجعل لك فيما كربك وحزنك مخرجاً- أو قال: فرجاً ومخرجاً- ويرزقك السلامة وحسن العاقبة من حيث لا تحتسب. احفظ يا بنى محمداً صلى الله عليه وسلم فى أمته يحفظ الله عليك أمورك. وإياك والدم

---

[1] تاريخ الرسل والملوك: للطبرى ١٠/٢٩٢.

الحرام، فإنه حوب عند الله عظيم، وعار فى الدنيا لازم مقيم. وإلزم الحلال، فإن ثوابك فى الآجل، وصلاحك فى العاجل وأقم الحدود تعتد فيها فتبور، فإن الله لو علم أن شيئاً أصلح لدينه وأزجر من معاصيه من الحدود لا مر به فى كتابه. وأعلم أن من شدة غضب الله لسلطانه، أمر فى كتابه بتضعيف العذاب والعقاب على من سعى فى الأرض فساداً مع ما ذخر له من عنده من العذاب العظيم، فقال: " إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِين يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً ". فالسلطان يا بنى حبل الله المتين، وعروته الوثقى، ودين الله القيم، فاحفظه وحطه وحصنه، وذب عنه، وأوقع بالملحدين فيه، وأقمع المارقين منه واقتل الخارجين عنه بالعقاب لهم والمثلات بهم، ولا تجاوز ما أمر الله به فى محكم القرآن. واحكم بالعدل ولا تشطط، فإن ذلك أقطع للشغب، وأحسم للغدو، وأنجع فى الدواء وعف عن الفئ فليس بك إليه حاجة مع ما أخلفه لك، وافتتح عملك بصلة الرحم وبر القربة، وإياك والأثرة والتبذير لأموال الرعيى واشحن الثغور، واضبط الأطراف، وأمن السبيل، وخص الواسطة، ووسع المعاش، وسكن العامة، وأدخل المرافق عليهم، واصرف المكاره عنهم، وأعد الأموال وإخزنها. وإياك والتبذير فإن النوائب غير مأمونة والحوادث غير مضمونة وهى من شيم الزمان. وأعد الرجال والكراع والجند ما استطعت. وإياك وتأخير عمل اليوم إلى غد، فتتدارك عليك الأمور وتضيع. جد فى إحكام الأمور النازلات لأوقاتها أولاً فأولاً، واجتهد وشمر فيها، وأعد رجالاً بالليل لمعرفة ما يكون بالنهار، ورجالاً بالنهار لمعرفة ما يكون بالليل. وباشر الأمور بنفسك ولا تضجر ولا تكسل ولا تفشل، واستعمل حسن الظن بربك، وأسئ الظن بعمالك وكتابك. وخذ نفسك بالتيقظ وتفقد من يبيت على بابك، وسهل إذنك للناس، وانظر فى أمر النزاع إليك، ووكل عيناً غير نائمة، ونفساً غير لاهية ولا تنم فإن أباك لم ينم منذ ولى الخلافة ولا دخل عينه غمض إلا وقلبه مستيقظ هذه وصيتى إليك والله خليفتى عليك)).

ثم نجده للخليفة القوى الآخر هارون الرشيد ثلاثة عهود رسمية لعل أهمها العهد الذى أملاه على ابنه المأمون فى الكعبة المشرفة وكتبه عبد الله بخط يده، وكله شروط ومواثيق يريد أن يثبتها الرشيد بين الأخوين: الأمين والمأمون، وكأنما

كان يستشعر بحاسته السياسية الداخلية الثاقبة، الذي سيحدث من فتن مقيتة بينهما، لذا حرص أن يوثق آراءه وشروطه فى كتاب مكتوب بخط يده فى أقدس بقاع الأرض لعله يكون قانونا ثابتاً للأخوين، حيث يقول فيه[1]:

((هذا كتاب لعبد الله هارون أمير المؤمنين، كتبه له عبد الله بن هارون أمير المؤمنين، فى صحة من عقله وجواز أمره، وصدق نية فيما كتب فى كتابه هذا، ومعرفة بما فيه من الفضل والصلاح له ولأهل بيته وجماعة المسلمين، إن أمير المؤمنين هارون ولانى العهد والخلافة وجميع أمور المسلمين فى سلطانه بعد أخي. وعلي محمد بن هارون الوفاء بما عقد لى من الخلافة وولاية أمور العبادات والبلاد بعده، وولاية خراسان وجميع أعمالها، ولا يعرض لى فى شئ مما أقطعنى أمير المؤمنين. وابتاع لى من الضياع والعقد والرباع، وابتعت منه فى ذلك، وما أعطانى أمير المؤمنين من الأموال والجواهر والكساء والمتاع والدواب والرقيق وغير ذلك ولا يعرض لى ولا لأحد من عمالى وكتابى بسبب محاسبة ولا يتبع لى فى ذلك ولا لأحد منهم أبداً، ولا يدخل على ولا عليهم ولا على من كان معى ومن استعنت به من جميع الناس، مكروها فى نفس ولا دم ولا شعر ولا بشر ولا مال، ولا صغير من الأمور ولا كبير. فأجابه إلى ذلك وأقربه، وكتب له كتاباً أكد فيه على نفيه ورضي به أمير المؤمنين هارون، وقبله وعرف صدق نيته فيه. فشرطت لأمير المؤمنين وجعلت له على نفسى أن أسمع لمحمد وأطيعه ولا أعصيه، وأنصحه ولا أغشه وأوفى بيعته، وولايته، ولا أغدر ولا أنكث، وأنفذ كتبه وأموره وأحسن مؤازرته وجهاد عدوه فى ناحيتى ما وفى لى بما شرط لأمير المؤمنين فى أمري، وسمي فى الكتاب الذى كتبه لأمير المؤمنين ورضي به أمير المؤمنين، ولم يتبعني بشئ من ذلك، ولم ينقض أمر الأمور التى شرطها أمير المؤمنين لى عليه. فإن احتاج محمد بن أمير المؤمنين إلى جند وكتب على يأمرني بأشخاصه إليه، أو إلي ناحية من النواحي، أو إلى عدو من أعدائه خالفه أو أراد نقض شئ من سلطانه او سلطانى الذى أسنده أمير المؤمنين إلينا وولانا إياه فعلى أن أنفذ أمره، ولا أخالفه

---

[1] تاريخ الطبرى – ٨٢/١٠.

ولا أقصر فى شئ كتب به إلى. وإن أراد محمد أن يولى رجلا من ولده العهد والخلافة من بعدى، فذلك له ما وفى لى بما جعله أمير المؤمنين إلى واشترطه لى عليه وشرط على نفسه فى أمرى وعلى إنفاذ ذلك الوفاء له به، ولا أنقض من ذلك ولا أغيره ولا أبدله ولا أقدم قبله أحداً من ولدى العهد من بعدى فليلزمنى ومحمداً الوفاء له وجعلت لأمير المؤمنين ومحمد على الوفاء بما شرطت وسميت فى كتابى هذا، ما وفى لى محمد بجميع ما اشترطت لى أمير المؤمنين عليه فى نفسى وما أعطانى أمير المؤمنين من الأسماء المسماة فى هذا الكتاب الذى كتبه لى. وعلى عهد الله وميثاقه وذمة أمير المؤمنين وذمتى وذمم أبائى وذمم المؤمنين وأشد ما أخذ الله النبيين والمرسلين من خلقه أجمعين، من عهوده ومواثيقه والإيمان المؤكدة التى أمر اله بالوفاء بها ونهى عن نقضها وتبديلها. فإن أنا انقضت شيئاً مما شرطت وسميت فى كتابى هذا أو غيرت أوبدلت او نكثت أو غدرت، فبرئت من الله عزوجل ومن وريته ودينه ومحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولقيت الله يوم القيامة كافراً مشركاً. وكل اكرأة هى لى اليوم أو أتزوجها إلى ثرثين سنة طالقاً ثلاثاً البتة طلاق الحرج. وكل مملوك لى اليوم أو أملكه إلى ثلاثين سنة أحرار لوجه الله، وعلى المشى إلى بيت الله الحرام الذى بمكة ثلاثين حجة نذراً وأحيا على فى عنقى حافياً راجلاً، لا يقبل الله منى إلا الوفاء بذلك وكل مال لى أو أملكه إلى ثلاثين سنة هدى بالغ الكعبة. وكل ما جعلت لأمير المؤمنين وشرطت فى كتابى هذا، لازم لى، لا أضمره غيره، ولا أنوى غيره. شهد سليمان بن أمير المؤمنين وفلان، وكتب فى ذى الحجة سنة ست وثمانين ومائة)).

وواضح ما فى هذا العهد من تشدد بين، وشروط قاسية، مدعمة بالقسم والدعاء والمواثيق والعهود، فالكتاب كله بمثابة الشرط القانونى يخلو من الأساليب البلاغية والحلى الإنشائية التى رأيناها فى العهد السابق الذى كتبه المنصور لابنه المهدى، حيث كان الإجماع مستقراً على ولايته للعهد، ولم يكن هناك تنافساً خطيراً كالذى حدث بين الأمين والمأمون.

لذا فقد حرص الرشيد على كتابة عهد ثان مشابه له في المضمون والأسلوب، أملاه على ابنه الآخر محمد الأمين الذى عهد إليه بالخلافة بعده مباشرة نظراً لأصالته فى نسب الخوولة العربى، وكانت نسخة العهد[١]:

((بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب لعبد الله هارون أمير المؤمنين كتبه الأمين بن هارون أمير المؤمنين، فى صحة من عقله وجواز من أمره طائعاً غير مكره. أمير المؤمنين ولانى للعهد من بعده، وصير البيعة لى فى رقاب المسلمين جميعاً، وولى عبد الله بن هارون العهد والخلافة وجميع أمور المسلمين بعدى. برضاً منى وتسليم، طائعاً غير مكره، وولاه خراسان وثغورها وكورها وحربها وجندها وخراجها وطرزما[٢] وبريدها. وبيوت أموالها، وصدقاتها وعشرها وعشورها وجمع أعمالها فى حياته وبعده. وشرطت لعبد الله هارون أمير المؤمنين برضاً منى وطيب نفسى، أن لأخى عبد الله بن هارون على الوفاء بما عقد له هارون أمير المؤمنين من العهد والولاية والخلافة وأمور المسلمين جميعاً بعدى، وتسليم ذلك له وما جعل له من ولاية خراسان وأعمالها كلها، وما أقطعه أمير المؤمنين من قطيعة، أوجعل له من عقدة[٣] أو ضيعة من ضياعه أو ابتاع من الضياع والعقد وما أعطاه فى حياته وصحته من مال أو حلى أو جواهر او متاع أو كسوة أو منزل أو دواب أو قليل أو كثير فهو لعبد الله بن هارون أمير المؤمنين موقراً مسلماً إليه. وقد عرفت ذلك شيئاً شيئاً.

فإن حدث بأمير المؤمنين حدث الموت وأفضت الخلافة إلى محمد ابن أمير المؤمنين فعلى محمد إنفاذ ما أمره به هارون أمير المؤمنين فى تولية عبد الله بن هارون أمير المؤمنين خراسان وثغورها ومن ضم إليه من أهل بيت أمير المؤمنين بقرماسين، وإن يمض عبد الله ابن أمير المؤمنين إلى خراسان والرى والكور التى سماها أمير المؤمنين حيث كان عبد الله ابن أمير المؤمنين من معسكر أمير

---

[١] تاريخ الطبرى – ٨١/١٠.

[٢] طرزها: أى الأماكن التى تطرز فيها ثياب السلطان والثياب الجياد.

[٣] العقدة: أى الضيعة أو الملك أوالعقار الذى أمتلكه صاحبه عن طريق العقد.

المؤمنين وغيره من سلطان أمير المؤمنين وجميع من ضم إليه أمير المؤمنين حيث أحب من لدن الرى إلى أقصى عمل خراسان. فليس لمحمد ابن أمير المؤمنين أن يحول عنه قائداً ولا مقوداً ولا رجل واحداً ممن ضم إليه من أصحابه الذين ضمهم إلى أمير المؤمنين، ولا يحول عبد الله ابن أمير المؤمنين عن ولايته التى ولاه إياها هارون أمير المؤمنين من ثغور خراسان وثغورها وبلادها، وما هو منسوب إليها، ولا يشخصه إليه، ولا يفرق أحداً من أصحابه وقواده عنه، ولا يولى عليه أحداً ولا يبعث عليه ولا على احد من عماله وولاة أموره بنداراً ولا محاسباً ولا عاملاً، ولا يدخل عليه فى صغير من أمر ولا كبير ضرراً، ولا يحول بينه وبين العمل فى ذلك كله برأيه وتدبيره ولا يعرض لأحد ممن ضم إليه أمير المؤمنين من أهل بيته وصحابته وقضاته وعماله وكتابه وقواده وخدمه ومواليه وجنده بما يلتمس إدخال الضرر والمكروه عليهم فى أنفسهم ولا قرابتهم ولا مواليهم، ولا أحد بسبيل منهم ولا فى دمائهم ولا فى أموالهم ولا فى ضياعهم ودورهم ورباعهم وأمتعتهم ورقيقهم ودوابهم شيئاً من ذلك صغيراً ولا كبيراً، ولا أحد من الناس بأمره ورأيه وهواه، وبترخيص له فى ذلك وإدهان منه لأحد من ولد آدم ولا يحكم فى أمرهم ولا أحد من قضاته ومن عماله وممن كان بسبب منه بغير حكم عبد الله ابن أمير المؤمنين ورأيه ورأى قضاته. وإن نزع إليه أحد ممن ضم أمير المؤمنين إلى عبد الله ابن أمير المؤمنين من اهل بيت أمير المؤمنين وصحابته وقواده وعماله وكتابه وخدمه ومواليه وجنده ورفض اسمه ومكته ومكانه مع عبد الله ابن أمير المؤمنين عاصياً له او مخالفاً عليه، فعلى محمد ابن أمير المؤمنين رده إلى عبد الله ابن أمير المؤمنين بصغر له وقماء حتى ينفذ فيه رأيه وأمره)).

ثم يكمل الرشيد عهده الطويل المشدد الذى يسير فى نفس النهج الذى سار فيه عهد المأمون السابق، خوفاً من عواقب أمور أدرك بحسه الأبوى وحدسه السلطانى أنها لابد صائرة فاتخذ لها احتياطاتها، حيث نرى بقية العهد السابق:

((فإن أراد محمد ابن أمير المؤمنين خلع عبد الله ابن أمير المؤمنين عن ولاية العهد من بعده أو عزل عبد الله ابن أمير المؤمنين عن ولاية خراسان

وثغورها وأعمالها، والذى من حد عملها مما يلى همذان والكور التى سماها أمير المؤمنين فى كتابه هذا أو صرف أحد من قواده الذين ضمهم أمير المؤمنين إليه ممن قدم قرماسين أو أن ينتقصه قليلاً أو كثيراً مما جعله أمير المؤمنين له بوجه من الوجوه بحيلة من الحيل، صغرت أو كبرت فلعبد الله بن هارون أمير المؤمنين الخلافة بعد أمير المؤمنين، وهو المقدم على محمد بن أمير المؤمنين وهو ولى الأمر بعد أمير المؤمنين والطاعة من جميع قواد أمير المؤمنين هارون من أهل خراسان وأهل العطاء وجميع المسلمين جميع الأجناد والأمصار لعبد الله ابن أمير المؤمنين والقيام معه والمجاهدة لمن خالفه والنصر له والذب عنه ما كانت الحياة فى أبدانهم وليس لأحد منهم جميعا من كانوا، أو حيث كانوا إن يخالفه ولا يعصيه ولا يخرج من طاعته ولا يطيع محمد ابن أمير المؤمنينفى خلع عبد الله بن هارون أمير المؤمنين وصرف العهد عنه من بعده إلى غيره، أو ينتقصه شيئاً مما جعله له أمير المؤمنين هارون فى حياته وصحته، واشترط فى كتابه الذى كتبه عليه فى البيت الحرام فى هذا الكتاب وعبد الله ابن أمير المؤمنين المصدق فى قوله وأنتم فى حل من البيعة التى فى أعناقكم لمحمد ابن أمير هارون إن نقص شيئاً مما جعله له أمير المؤمنين هارون وعلى محمد بن هارون أمير المؤمنين أن ينقاد لعبد الله ابن أمير المؤمنين هارون ويسلم له الخلافة.

وليس لمحمد بن أمير المؤمنين هارون ولا لعبد الله ابن أمير المؤمنين أن يخلعا القاسم ابن أمير المؤمنين هارون، ولا يقدما عليه أحداً من أولادهما وقرابتهما ولا غيرهم من جميع البرية فإذا أفضت الخلافة إلى عبد الله ابن أمير المؤمنين فالأمر إليه فى إمضاء ما جعله أمير المؤمنين من العهد للقاسم بعده أو صرف ذلك عنه إلى من رأى من ولده وإخوانه،وتقديم من أراد أن يقدم قبله وتصيير القاسم ابن أمير المؤمنين بعد من يقدم قبله يحكم فى ذلك بما أحب ورأى)).

أما فى نهاية العهد نرى الرشيد يتجه إلى عامة المسلمين وخاصتهم يرجوهم قبول البيعة لأبنائه الثلاثة بالتدريج وهم الأمين فالمأمون فالقاسم، وإلا فهم فى عدم

حل من نقضهم بيعة أمير المؤمنين لولاة عهده، لأنهم سيكونون حينئذ دعاة فتنة وشقاق.

فعليكم معشر المسلمين إنفاذ ما كتب به أمير المؤمنين فى كتابه هذا وشرط عليهم وأمر به وعليكم السمع والطاعة لأمير المؤمنين فيما ألزمكم وأوجب عليكم لعبد الله ابن أمير المؤمنين وعهد الله وذمته وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم وذمم المسلمين والعهود والمواثيق التى أخذ الله على الملائكة المقربين والنبيين والمرسلين، ووكدها فى أعناق المؤمنين والمسلمين لتفن لعبد انه أمير المؤمنين بما سمى ولمحمد وعبد الله والقاسم بنى أمير المؤمنين بما سمى وكتب هذا، واشترط عليكم وأقررتم به على أنفسكم فإن أنتم بدلتم من ذلك شيئاً أو نكثتم أو خالفتم ما أمركم به أمير المؤمنين واشترط عليكم فى كتابه هذا فبرئت منكم ذمة الله وذمة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم وذمم المؤمنين والمسلمين وكل مال هو اليوم لكل رجل منكم أو يستفيده إلى خمسين سنة فهو صدقة على المساكين وعلى كل رجل منكم المشى إلى بيت الله الحرام بمكة خمسين حجة، نذراً واجباً لا يقبل الله منه الوفاء بذلك، وكل مملوك لأحد منكم أو يملكه فيما يستقبل إلى خمسين سنة – حر وكل امرأة له فهى طالق ثلاثاً البتة طلاق الحرج، لا مثنوية فيها، والله عليكم بذلك كفيل وراع، وكفى بالله حسيبا)).

ثم بعد ذلك نرى الرشيد نفسه يكتب عهداً إلى عماله وولاته فى الأمصار يخبرهم بما فعل مع ابنيه الأمين والمأمون من توليتهما لعهده وأخذ المواثيق عليهما وتعليق كل ذلك فى جوف الكعبة المشرفة، مبتدءاً بالتعليل ذاته الذى كتبه جده المنصور لولى عهده المهدى والد الرشيد، من حيث التأكيد على حب الناس لمن اختارهما الخليفة وليان للعهد، وما ذلك إلا لإرادة الخالق سبحانه لخلقه.

وهذه نسخة عهد هارون الرشيد الذى بعثه إلى العمال والولاة[1]

((بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد فإن الله ولى أمير المؤمنين وولى ما ولاه والحافظ لما استرعاه وأكرمه به خلافته وسلطانه، والصانع له فيما قدم وأخر

---

[1] تاريخ الطبرى- ١٠/٨٤

من أموره والمنعم عليه بالنصر والتأييد فى مشارق الأرض ومغاربها والكالئ والحافظ من جميع خلقه وهو المحمود على جميع آلائه المسؤول تمام حسن ما أمضى من قضائه لأمير المؤمنين وعادته الجميلة عنده، وإلهام ما يرضى به ويوجب له عليه أحسن المزيد من فضله. وقد كان من نعمة الله عزوجل عند أمير المؤمنين، وعندك وعند عوام المسلمين ما تولى الله من محمد وعبد الله ابنى أمير المؤمنين، من تبليغه بهما أحسن ما أملت الأمة، ومدت إليه أعناقها، وقذف الله لهما فى قلوب العامة من المحبة والمودة والسكون إليهما والثقة بهما، لعماد دينهم وقوام أمورهم وجمع ألفتهم وصلاح دهمائهم، ودفع المحذور والمكروه من الشتات والفرقة عنهم حتى ألقوا إليهما أزمتهم، وأعطوهما بيعتهم وصفقات إيمانهم بالعهود والمواثيق ووكيد الأيمان المغلظة عليهم. أرد الله فلميكن له مرد، وأمضاه فلم يقدر أحد من العباد على نقضه ولا غزالته، ولا صرف له عن محبته ومشيئته وما سبق فى علمه منه وأمير المؤمنين يرجو تمام النعمة عليه وعليهما فى ذلك وعلى الأمة كافة، لا عاقب لأمر الله ولا راد لقضائه ولا معقب لحكمه.

ولم يزل أمير المؤمنين منذ اجتمعت الأمة على عقد العهد لمحمد بن أمير المؤمنين من بعد أمير المؤمنين ولعبد الله بن أمير المؤمنين من بعد محمد بن أمير المؤمنين، يعمل فكره ورأيه ونظره ورويته فيما فيه الصلاح لهما ولجميع الرعية والجمع للكلمة واللم للشعث والدفع للشتات والفرقة والحسم لكيد أعداء النعم من أهل الكفر والنفاق والغل والشقاق، والقطع لآمالهم من كل فرصة يرجون إدراكها وانتهازها منهما بانتقاص حقهما. ويستخير الله أمير المؤمنين فى ذلك. ويسأله العزيمة له على ما فيه الخيرة لهما ولجميع الأمة، والقوة فى أمر الله وحقه وائتلاف أهوائهما، وصلاح ذات بينهما، وتحصينهما من كيد أعداء النعم، ورد حسدهم ومكرهم وبغيهم وسعيهم بالفساد بينهما.

ثم يبين الرشيد الطرق التى اتبعها وسيتبعها لإتمام هذا الأمر بعلانية وموافقة من جميع الرعية حفظاً لجماعة المسلمين من الفرقة والشتات حيث يكمل عهد، قائلاً:

((فعزم الله لأمير المؤمنين على الشخوص بهما إلى بيت الله، وأخذ البيعة منهما لأمير المؤمنين بالسمع والطاعة والإنفاذ لأمره واكتتاب الشرط على كل واحد منهما لأمير المؤمنين ولهما بأشد المواثيق والعهود واغلظ الأيمان والتوكيد والأخذ لكل واحد منهما على صاحبه بما التمس به أمير المؤمنين اجتماع ألفتهما ومودتهما وتواصلهما وموازرتهما ومكانفتهما على حسن النظر لأنفسهما ولرعية أمير المؤمنين التي استرعاهما والجماعة لدين الله عزوجل وكتابه وسنن نبيه صلى الله عليه وسلم والجهاد لعدو المسلمين من كانوا وحيث كانوا، وقطع طمع كل عدو مظهر للعداوة، وستر لها وكل منافق ومارق، وأهل الأهواء الضالة والمضلة المضلة من تكيد بكيد توقيعه بينهما، وبدحس[1] يدحس به لهما، وما يلتمس أعداء الله وأعداء النعم وأعداء دينه من الضرب بين الأمة والسعي بالفساد في الأرض والدعاء إلى البدع والضلالة، نظراً من أمير المؤمنين لدينه ورعيته وأمة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ومناصحة لله ولجميع المسلمين، وذباً عن سلطان الله الذي قدره وتوحد فيه للذي حمله إياه والإجتهاد في كل ما فيه قربة إلى الله وما ينال به رضوانه والوسيلة عنده فلما قدم مكة أظهر لمحمد وعبد الله رأيه في ذلك وما نظر فيه لهما فقبلا كل ما دعاهما إليه من التوكيد على أنفسهما بقبوله وكتبا لأمير المؤمنين في بطن بيت الله الحرام بخطوط أيديهما بمحضر ممن شهد الموسم من أهل بيت أمير المؤمنين وقواده وصحابته وقضاته وحجبة الكعبة وشهاداتهم عليهما كتابين استودعهما أمير المؤمنين الحجبة وأمر بتعليقهما في داخل الكعبة.

فلما فرغ أمير المؤمنين من ذلك كله في داخل بيت الله الحرام وبطن الكعبة أمر قضاته الذين شهدوا عليهما وحضروا كتابهما أن يعلموا جميع من حضر الموسم من الحاج والعمار ووفود الأمصار ما شهدوا عليه من شروطهما وكتابهما وقراءة ذلك عليهم ليفهموه ويعوه ويعرفوه ويحفظوه ويؤدوه إلى إخوانهم وأهل بلدانهم وأمصارهم، ففعلوا ذلك وقرئ عليهم الشرطان جميعاً في المسجد الحرام فانصرفوا، وقد اشتهر ذلك عندهم وأشتوا الشهادة عليه وعرفوا نظر أمير المؤمنين

---

[1] يدحس: يفسد.

وعنايته بصلاحهم وحقن دمائهم ولم شعثهم وإطفاء جمرة أعداء الله، أعداء دينه وكتابه وجماعة المسلمين عنهم وأظهروا الدعاء لأمير المؤمنين والشكر لما كان منه فى ذلك فقد نسخ لك أمير المؤمنين ذينك الشرطين االذين كتبهما لأمير المؤمنين ابناه محمد وعبد الله فى بطن الكعبة فى أسفل كتابه هذا فأحمد الله عزوجل على ما صنع لمحمد وعبد الله وليى عهد المسلمين حمداً كثيراً وأشكره ببلائه عند أمير المؤمنين وعند وليى عهد المسلمين وعندك وعند جماعة أمة محمد صلى الله عليه وسلم كثيرا. وإقرأ كتاب أمير المؤمنين على من قبلك من المسلمين وأفهمهم إياه وقم به بينهمن وأثبته فى الديوان قبلك وقبل قواد أمير المؤمنين ورعيته قبلك واكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون فى ذلك، إن شاء الله حسبنا الله ونعم الوكيل وبه الحول والقوة والطول)).

وعلى الرغم من أخذ هذه العهود طابع الرسمية والجد إلا أنها لم تخل من عاطفة أبوية صادقة تشفق على فلذتى كبدها من جور الزمان، كما أنها لا تخلو من عاطفة اسلامية عامة تخشى على أمة الاسلام من التمزق والضياع إضافة إلى أن هذه العهود لم تحرم بعض الصور الجمالية المؤثرة مثل قوله: " لم شعث المسلمين واطفاء جمرة أعداء الله". وكأنما هو هنا يلخص هدفه من تلك العهود جميعها عن طريق الاسلوب البيانى.

كما كثرت (عهود الأمان) التى يكتبها الخلفاء العباسيون لأعدائهم حينما يرغبون فيها يوفونها حقها، فكان الخليفة يكتبها بيده ويوثقها أو يمليها بنفسه على أحد كتابه الذين يثق فيهم ويختارهم بعناية، وذلك مثل كتاب الأمان الذى كتبه الخليفة المنصور لأحد الخارجين عليه، رغبة فى استتابته، وهوابن هبيرة الذى كان قد أعلن عداءه لدولة بنى العباس حيث كتب المنصور فيه[1]:

((إنى أمنتكم بأمان الله الذى لا إله إلا هو، الذى يعلم سرائر العباد، ويعلم ما تخفى الصدور، وإليه الأمر كله، أماناً صادقاً لا يشوبه غش، ولايخالطه باطل، على أنفسكم وذراريكم وأموالكم، وأعطيت يزيد بن عمر بن هبيرة ومن أمنته فى

---

[1] جمهرة رسائل العرب: ٣/١١.

أعلى كتابى هذا، الوفاء بما جعلت لهم من عهد الله وميثاقه الذى واثق به الأمم الماضية من خلقه، وأخذ عليهم به أمره، عهدا خالصاً وذمة الله وذمة محمد، ومن مضى من خلفائه الصالحين، وأسلافه الطيبين التى لا يسع العباد نقصها، ولا تعطيل شئ منها ولا الإحتقار لها، وبها قامت السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها تعظيما لها وبها حقنت الدماء وذمة روح الله وكلمته عيسى بن مريم وذمة إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وأعطيتك ما جعلت لك من هذه العهود والمواثيق ولمن معك من المسلمين وأهل الذمة بعد استئمارى فيما جعلت لك منه عبد الله بن محمد[١] أمير المؤمنين أعز الله نصره وأمر بإنفاذ لكم فاطمئن إلى ما جعلت لك من الأمان والعهود والمواثيق، وثق بالله وبأمير المؤمنين فيما سلم منه ورضى به وجعلته لك ولمن معك على نفسى ولك على الوفاء بهذه العهود والمواثيق والذمم أشد ما أخذ الله وحرمه وما أنزل الله تبارك وتعانى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم فإنه جعله كتاباً مبيناً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ونوراً وحجة على العباد حتى ألقى الله وأنا عليه وأنا أشهد الله وملائكته ورسله ومن قرئ عليه كتابى هذا من المسلمين والمعاهدين بقبول هذه العهود والمواثيق وإقرارى بها على نفسى وتوكيدى فيها وعلى تسليمى لك ما سألت لا يغادر منها شئ، ولا ينكث عليك فيها، وأدخلت فى أمانك هذا جميع ما قبلى من شعة أمير المؤمنين من أهل خراسان، ومن لأمير المؤمنين عليه طاعة من أهل الشام والحرب وأهل الذمة، وجعلت لك أن لا ترى منى انقباضاً ولا مجانبة ولا ازوراراً[٢] ولا شيئا تكرهه فى دخولك على إلى مفارقتك إياى، ولا ينال أحداً معك أمر يكرهه، وأذنت لك ولهم فى المسير والمقام وجعلت لهم أماناً صحيحاً وعهداً وثيقاً وأن عبد الله بن محمد[٣] إن نقص ما جعل لكم فى أمانكم هذا فنكث أو غدر بكم أو خالف إلى أمر تكرهه، أو تابع على خلافه أحداً من المخلوقين فى سر أو

---

[١] يعنى أبا العباس السفاح فى حياته، حيث كان المنصور ولى عهده.

[٢] ازورارا: أى انحرافا.

[٣] يعنى المنصور: نفسه

علانية أو أضمر لك فى نفسه غير ما أظهر لك، أو أدخل عليك شيئاً فى أمانه، وما ذكر لك من تسليم أمير المؤمنين التماس الخديعة والمكر بك وإدخال المكروه عليك أو نوى غير ما جعل لك من الوفاء لك به، فلا قبل الله منه صرفا ولا عدلا[1] وهو برئ من محمد بن على، وهو يخلع أمير المؤمنين ويتبرأ من طاعته وعليه ثلاثون حجة يمشيها من موضعه الذى هو من مدينة واسط إلى بيت الله الحرام الذى بمكة حافياً راجلاً وكل مملوك يملكه من اليوم إلى ثلاثين حجة[2] بشراء أو هبة أحرار لوجه الله وكل امرأة له طالق ثلاثا وكل ما يملكه من ذهب أو فضة أو متاع أو دابة أو غير ذلك فهو صدقة على المساكين وهو يكفر بالله وبكتابه المنزل على نبيه والله عليه فيما وكد وجعل على نفسه فى هذه الأيمان راع وكفيل، وكفى بالله شهيداً)).

ونلاحظ على هذا العهد أنه ذو لغة متشددةوذلك لردع الأعداء عن تكرار تمردهم كما أنه كغيره من العهود يختص بأسلوب تقريرى مباشر لكى يخدم الهدف من كتابته الرسمية حتى صار نموذجاً للعهود الأخرى فيما بعد ففيه من المواثيق التى ارتبطت صياغتها بالناحي الدينية لكى يزداد تأثيرها والتقيد بما جاء فيها.

واستمر الخلفاء العباسيون يكتبون عهودهم سواء أماناً لأعدائهم التائبين أو أوامر ونصائح لولاتهم وعمالهم وشتان بين لغة العهدين فهى شديدة صارمة على الأعداء اتقاء لشرورهم وأماناً من مكائدهم بينما مع الأولياء تكون لغة هادئة لينة، وغن لم تخل من حزم يقتضيه الأمر[3]، وذلك مثل " ما عهد به عبد الله المهدى محمد أمير المؤمنين من ولاة ثغر أرمينية والباب والأبواب[4] حربها وخراجها وصدقاتها وجميع أعمالها. أمره بتقوى الله فى سرائره وعلانيته والاعتصام بالله والعمل بطاعته والإيثار لحقه على ما سواه والمراقبة له والخشية منه، والحفظ لدينه وأمانته

---

[1] الصرف: التوبة، والعدل: الفدية.

[2] الحجة: السنة.

[3] جمهرة خطب العرب – ٣/٣٣١.

[4] يقال له: باب الأبواب، كما يقال له: الباب، غير مضاف وأيضا كما فى النص: الباب والأبواب وهى مدينة على بحر طبرستان، وهوبحر الخزر.

والانتهاء إلى ما يحق عليه فيما وافقه وخالفه، فإن الله لا يضيع لمحسن أجرا ولا يصلح لمفسد عملا. وأمره أن يشعر قلبه مخافة الله وهيبته وأن يعلم أنه لا حول ولا قوة في شئ إلا بالله والعمل بطاعته فإن الله عزوجل إذا علم بذلك بصدق نيته وصحة من يقينه أحسن عوله، وخار[١] له في قضائه وكفاه ما همه ولم يكله في شئ من أموره إلى نفسه إن شاء الله.

وأمره أن يتعاهد نفسه في دينه وطاعته ونصيحته وحاله، في الصغير والكبير من أمره، ويكثر ذكر علمه به وقدرته عليه، وألا يأتمر أمراً حتى يستخير الله فيه، ويستعينه عليه، ويستقضيه فيه، بالذى هو أحب إليه، وأرضى عنده فإن العاقبة للتقوى، وإن أفضل الأمور أصلحها عاجلا، وخيرها عاقبة، وأعظمها أجرا، وأحسنها ذخراً، إن شاء الله.

وأمره أن يعلم أن الثغر الذى ولاه أمره، من أعظم ثغوره عنده، وأهم أعماله إليه لقربه من العدو وإطلاله عليهم وموقعه من المسلمين وأنه لم يسنده إليه إلا لحاله عنده، وثقته به ومعرفته بطاعته ونصيحته وكفايته وضبطه ومبالغته وحسن سيرته وسياسته ومكيدته ونكايته في أهل الشرك بالله، وعن الإسلام وأهله وأنه ليس أحد من عماله إن اتقى واعتصم بأمره وأخذ بعهده ورأيه بأسرع منه بكل ما أمر زاده الله به عنده منزلة ومزية وفضلاً. وأمره أن يصلى الصلوات لمواقيتها في مسجد الجماعة، ولا يتشاغل عنها بغيرها، فإن الله جعلها عمود الدين، فقال تبارك وتعالى: ((فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً)).

وأمره أن يفتح بابه لأهل عمله ويقل الاحتجاب عنهم ويلين كنفه لهم، وينظر في أمورهم ومظالمهم وينصف بعضهم من بعض ولا يحابى شريفاً لشرفه، ولا يتعدى على وضيع لضعته، وألا يكون لأحد من الناس، يخالف الحق عنده هوادة ولا غميزة[٢]، وأن يصبر نفسه على ما نابه وورد عليه من أمورهم

---

[١] خار الله له في الأمر: اختار له ما فيه الخير.

[٢] غميزة: أى مطعن أو مطمع.

ومظالمهم وينظر ويجلس له حتى يؤدى إلى كل ذى حق حقه، فإن فى ذلك صلاحهم ومعوننه على ما ينوى من العدل عليهم وتأدية حق الله عليه فيهم إن شاء الله. وأمره بحسن الولاية ورفق السياسة وإظهار العدل والعمل بالحق وكف الظلم وابطال الجور وإيثار اهل الطاعة والنصيحة والفضل والورع وصدق النية ويفضلهم على غيرهم ويستعين بآرائهم فيما هو مصدره حتى يكون ما يمضى وينفذ منه بحسب ما يجتمعون عليه ويرونه موافقاً للعدل، ومجانباً للظلم والجور.

هذا عهدى إليك وأمرى إياك فيما وليتك، وأسندت إليك وقلدتك، فامتثله واعمل به ولا تجاوزه واستعن بالله فيما غلبك يعنك الله، والله اسأل أن يصلى على محمد عبده ورسوله، وأن يوفقك ويحسن كفايتك)).

كما كتب الخليفة الحازم هارون الرشيد مثل هذا العهد الودى لأحد ولاته، حيث كتب عهد هرثمة بخط يده، كالتالى[1]:

((هذا ما عهد هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى هرثمة بن أعين حين ولاه ثغر خراسان وأعماله وخراجه، أمره بتقوى الله وطاعته ورعاية أمر الله ومراقبته وأن يجعل كتاب الله إماماً فى جميع ما هو بسبيله، فيحل حلاله ويحرم حرامه، ويقف عند متشابهه ويسأل عنه أولى الفقه فى دين الله وأولى العلم بكتاب الله أويرده إلى إمامه ليريه الله عزوجل فيه رأيه ويعزم على رشده وأمره أن يستوثق من الفاسق على بن عيسى وولده وعماله وكتابه وأن يشد عليهم وطأته ويحل بهم سطوته ويستخرج منهم كل مال يصح عليهم من خراج أمير المؤمنين وفئ المسلمين فإذا استنظف ما عندهم وقبلهم من ذلك نظر فى حقوق المسلمين والمعاهدين وأخذهم بحق كل ذى حق حتى يردوه إليهم فإن ثبتت قبلهم حقوق لأمير المؤمنين وحقوق للمسلمين فدافعوا بها وجحدوها فله أن يصب عليهم سوط عذاب الله وأليم نقمته حتى يبلغ بهم الحال التى إن تخطاها بأدنى أدب تلفت أنفسهم وبطلت أرواحهم. فإذا خرجوا من حق أشخصهم كما تشخص العصاة من خشونة الوطاء

---

[1] تاريخ الطبرى ١٠/١١٠

وخشونة المطعم والمشرب. وغلظ الملبس مع الثقات من أصحابه إلى باب أمير المؤمنين إن شاء الله.

فأعمل يا أبا حاتم بما عهدت إليك فإنى آثرت الله ودينى على هواى وإرادتى فكذلك فليكن عملك وعليه فليكن أمرك ودبر فى عمال الكور الذين تمر بهم فى صعودك، ما لا يستوحشون معه إلى أمر يريبهم وظن يرعبهم وأبسط من آمال أهل ذلك الثغر ومن أمانهم وعذرهم، ثم اعمل بما يرضى الله منك وخليفته، ومن ولاك الله أمره إن شاء الله... هذا عهدى وكتابى بخطى، وانا أشهد الله وملائكته وحملة عرشه وسكان سماواته. وكفى بالله شهيداً ... وكتب أمير المؤمنين بخط يده لم يحضره إلا الله وملائكته)).

وفى هذا العهد تبيان لسياسة الرشيد الذى أخذ بالحرص والشدة فهو يتابع مع ولاته ما يجرى فى ولاياتهم فقد كتب عهده هذا بنفسه ولم يشهد عليه إلا الله تعالى وملائكته ونلحظ أن أسلوبه يزاوج بين اللين والشدة، فهو يأمر واليه بغاية التشدد مع الخارجين أو الفاسقين، واللين والعدل مع بقية الرعية الموالين.

والرشيد كغيره من بنى العباس فى كتابتهم النثرية من خطب ورسائل وعهود ووصايا يحيطونها بالأطر الإسلامية فى الشكل والمضمون فمن حيث المضمون هنا نراه يحث واليه على التقيد بكتاب الله وما جاء فيه من عقائد وأحكام أما من حيث الشكل فهو يتأثر بالإسلوب القرآنى مثل قوله: ((يصب عليهم سوط عذاب الله وأليم نقمته))، وقوله: أن يشد عليهم وطأته ويحل بهم سطوته... إلى غير ذلك من الأساليب والمعانى المتأثرة بروح البلاغة القرآنية والنبوية. وإن كان يغلب عليها الزهد فى المحسنات اللفظية والمعنوية غلا ما جاء منها عفو الخاطر غير مجتلب ولا متكلف لأن أهدافها ومعانيها أقرب إلى التقرير والتوثيق فى إطار الرسمية الجادة التى لا تريد ان تحيد عن المراد.

واللافت فى مجال النثر لدى الخلفاء العباسيين فى ذلك العصر أن البعض منهم لم يتطرق إلى قوله إطلاقاً. ونعنى به هنا مجال كتابة الرسائل والعهود بصفة خاصة، فلم نر أية رسالة أو عهد كتبه أو أملاه الواثق أو الهادى، أما السفاح فقد

عثرنا له على رسائل قصيرة قليلة جدا أشبه بالتوقيعات ولكن لا تكاد تصل إلى مرتبتها فى البلاغة، وهى أشبه بالأوامر السياسية، إضافة إلى أن أسلوب كتابتها يوضح أنها مملاة ولم يكتبها بنفسه كما كان يفعل أسلافه أمثال المنصور والرشيد والمأمون الذين يحرصون فى كثير من الأحيان على كتابة رسائلهم وعهودهم بأيديهم كما أن موضوعات رسائله ليست ذات أهمية تاريخية. كرسالته الموجزة التى يطلب فيها من أخيه المنصور أن يسمح لأبى مسلم الخراسانى بالحج لأنه استأذنه فى ذلك وأمره ان يسبقه فى السفر. وأما الرسالة الموجزة الأخرى فكانت تعزيته فى داود بن على العباسى، وكانت على هيئة بيان رسمى موجز[١].

أما بالنسبة للخليفة المعتصم فكانت أميته فى الكتابة قد ساهمت فى عدم وجود رسائل او عهود بإسمه، إلا أن له كتاباً مطولاً بعث به إلى الأمصار وملوك الآفاق حينما قضى على فتنة بابك الخرمى المشهورة والتى أضرت بالدولة العباسية قبل عهد المعتصم إلى أن انتصرت عليها جيوش المعتصم بقيادته انتصاراً ساحقاً أراح المسلمين من شرها وشر قائدها الذى ادعى الألوهية!

وواضح من الرسالة التى هى أشبه ما تكون بالبيانات الرسمية البليغة المفصلة أنها بلا شك قد كتبت نيابة عن المعتصم الأمى الذى لم يكن يخلو من فصاحة جعلته مفوهاً لذا فقد يكون ساهم فى إملائها لا سيما وهى تخص شأناً خطيراً من شئون الدولة وفى المجال الذى يعشقه المعتصم وهو المجال العسكرى أو ساحة البطولات التى اشتهر بها وتعلق بها[٢].

أما السمة الغالبة على رسائل أولئك الخلفاء وعهودهم فهى حرصهم على توشية أساليبهم ومعانيهم وأفكارهم بالطابع الإسلامى من حمد لله وثناء عليه واستشهاد بقوله سبحانه أو قول رسوله صلى الله عليه وسلم، وإرجاع كل نصر بل كل أمر إلى الخالق جل وعلا، واحتساب أجره وطاعته فى جميع الأحوال.

---

[١] انظر هاتين الرسالتين الموجزتين فى جمهرة رسائل العرب ٣/١٩، ١٨

[٢] انظر المصدر السابق: جـ٤/ ص ٦-١٠.

أما الوصايا:

فإنها أقرب للوعظ والإرشاد وتمتاز بالقصر والبلاغة وتزخر بالحكم والجمل الإنشائية العذبة، وتستشهد بالشعر. كما أن قائلها أو كاتبها من خلفاء بني العباس يكون أهدأ نفساً وأطيب خاطراً منه وهو يكتب رسالة أو عهداً، ثم أنه يحرص على جمال أسلوبه وانتقاء ألفاظه ومعانيه بعكس كتابة العهد الذى يتسم بالمباشرة والتقرير.

والوصايا قد تتفق مع العهود فى أسلوب النصيحة ولكنها فى الوصية تكون بأسلوب بلاغى أرقى، وعبارات ألين الهدف منها التأثير الإيجابى فى المتلقى وإفادته بما يسمع ويقرأ.

والوصية ما هى إلا شكل من أشكال النثر التى عرفها العصر العباسى تتم غالبا بين اثنين تربطهما عاطفة قوية أو مصلحة مشابهة يقدم فيها الموصى خلاصة تجربته وعصارة عقله وأفكاره ليفيد الطرف الآخر، ويتوافر للوصية ما لم يتوافر لغيرها فى الغالب، من رؤية، وإمعان وفكر وتهيئة نفسية وتحضير ذهن، وإعداد مسبق ، وترتيب أفكار، وموضوعاتها غالبا مجموعة من المثل والقيم العليا النبيلة والحكمة المستفادة من الحياة والتمرس فى فن التعامل مع الآخرين[١].

وأول ما نجد وصية طريفة من الخليفة منصور لابنه المهدى فى أخريات حياته حينما عزم على الحجة الأخيرة التى توفى فيها، ذكرها الطبرى فى تاريخه، الذى قال[٢]: ((فلما كان اليوم الذى أراد أن يرتحل فيه دعا المهدى فقال له: إنى لم أدع شيئاً إلا قد تقدمت إليك فيه، وسأوصيك بخصال والله ما أظنك تفعل واحدة منها- وكان له سقط فيه دفاتر علمه، وعليه قفل لا يأمن على فتحه ومفتاحه أحداً، يصر مفتاحه فى كم قميصه. قال: وكان حماد التركى يقدم إليه ذلك السفط إذا دعا به، فإذا غاب حماد أو خرج كان الذى يليه سلمة الخادم- فقال للمهدى: انظر هذا السفط فاحتفظ به فإن فيه علم آبائك، ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة فإن

---

[١] انظر: صور من النثر الفنى فى العصر العباسى: د. محمد مصطفى منصور ص ٨٦-٨٧.

[٢] تاريخ الرسل والملوك: للطبرى - ٩/٢١٩.

أحزنك أمر فانظر فى الدفتر الأكبر، فإن أصبت فيه ما تريد، وإلا فالثانى والثالث، حتى بلغ سبعة فإن ثقل عليك فالكراسة الصغيرة فإنك واجد فيها ما تريد، وما أظنك تفعل، وانظر هذه المدينة فإياك ان تستبدا بها فإنها بيتك وعزك قد جمعت لك فيها الأموال ما إن كسر عليك الخراج عشر سنين كان عندك كفاية لأرزاق الجند والنفقات وعطاء الذرية ومصلحة الثغور، فاحتفظ بها فإنك لا تزال عزيزاً ما دام بيت مالك عامراً وما أظنك تفعل. وأوصيك بأهل بيتك إن تظهر كرامتهم وتقدمهم وتكثر الإحسان إليهم وتعظم أمرهم وتوطئ الناس أعقابهم،وتوليهم المنابر فإن عزك وذكرهم لك، وما أظنك تفعل.

وانظر مواليك فأحسن إليهم وقربهم واستكثر منهم فإنهم مادتك لشدة إن نزلت بك، وما أظنك تفعل وأوصيك بأهل خراسان خيراً فإنهم أنصارك وشيعتك الذين بذلوا أموالهم فى دولتك، ودماءهم دونك، ومن لا تخرج محبتك من قلوبهم، إن تحسن إليهم تتجاوز عن مسيئهم وتكافئهم على ما كان منهم وتخلف من مات منهم أهله وولده، وما اظنك تفعل، وإياك أن تبنى مدينة الشرقية فإنك لا تتم بناءها وما أظنك تفعل. وإياك أن تستعين برجل من بنى سليم، وأظنك ستفعل. وإياك ان تدخل النساء فى مشورتك فى أسرك واظنك ستفعل)).

فنلاحظ فى هذه الوصية عدة ملاحظات: أولها: أنها وصية مودع يريد أن يطمئن بها على عقبه، وثانيها: قصرها النسبى حيث قلت عباراتها عن حجم العهود والوصايا الرسمية الموثقة، أما ثالثها: فهو غلبة طابع الطرافة عليها، حيث كرر المنصور عبارة "وما أظنك تفعل" وذلك بعد كل نصيحة جادة، وكان الأب من شدة حرصه يخشى ألا يتقيد به، نظراً لطول خبرة الوالد وقصر خبرة الابن.

وفى المقابل نرى المنصور يكرر عبارة " وأظنك ستفعل" فى الأمور التى ينهاه عنها مثل الرضوخ للنساء فى أمور الحكم، خشية منه أنه لن يقاوم مثل هذه الأمور، وكأن هذا الأب الحكيم يشعر بحدسه القوى أن ابنه سيخضع لامرأة قوية مثل الخيزران التى أعتقها وتزوجها ثم أنجب منها ابنيه الخليفتين القويين: موسى الهادى وهارون الرشيد.

ولما وجه المنصور عيسى بن موسى فى محاربةبنى عبد الله بن الحسن قال موصياً إياه: ((يا أبا موسى، إذا وصلت إلى المدينة فادع محمد بن عبد الله بن الحسن إلى الطاعة والدخول فى الجماعة فإن أجابك فاقبل منه إن هرب منك فلا تتبعه إن أبى الحرب فناجزه واستعن بالله عليه، فإذا ظفرت به فلا تحيفن أهل المدينة وعمهم بالعفو، فإنهم الأصل العشيرة وذرية المهاجرين والأنصار، وحيران قبر النبى صلى الله عليه وسلم. فهذه وصيتى إياك لا كما أوصى به يزيد بن معاوية مسلم من أبى عقبة حين وجهه إلى المدينة وأمره أن يقتل من ظهر له إلى ثنية الوداع وأن يبيحها ثلاثة أيام ففعل فلما بلغ يزيد ما فعله تمثل بقول ابن الزبعرى فى يوم أحد حيث قال:

ليت أشياخى ببدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الأسل

ثم اكتب إلى مكة بالعفو عنهم والصفح، فإنهم آل الله وجيرانه وسكان حرمه وأمنه وسنبت القوم والعشيرة وعظم البيت والحرم، لا تلحد فيه بظلم فإنه حرم الله الذى بعث منه نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم، وشرف به آباءنا لتشريف الله إيانا، فهذه وصيتى لا كما أوصى به الذى وجه الحجاج إلى مكة فأمره أن يضع المجانيق على الكعبة وأن يلحد فى الحرم بظلم، ففعل ذلك. فلما بلغه الخبر تمثل بقول عمروبن كلثوم:

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

لنا الدنيا من أضحى عليها ونبطش حين نبطش قادرينا))[١]

وهذه الوصية من المنصور الذى عرف عنه أنه أحد أساطين السياسة والبلاغة والفقه بالدين والسنة واللغة والأدب وأخبار الناس، مما جعله يتسنم ذروة البلاغة ويتملك ناصية البان فى تلك الحقبة من الزمان[٢] تجعلنا نتيقن من فحولته البلاغية والأدبية والتاريخية فهو يذكر نماذج التاريخ الأدبى ويتحاشى أن يكون

---

[١] العقد الفريد: لابن عبد ربه – ٨٤/٥.

[٢] انظر: تاريخ الأدب العربى: إبراهيم أبو الخشب – ٢٣٠.

مثلها لأنها حادت عن طريق الصواب وذلك فى عهد أسلاف العباسيين وهم بنى أمية الذين أحيوا ذكر اجدادهم ممن حاربوا الإسلام فى فجره.

ويستخدم هذا الإسلوب التقافى البليغ الجذاب كرداء لنصائحه ووصاياه لوليده لكى نرسخ فى ذهنه وأذهان السامعين مبادئ أبى جعفر الراسخة التى تريد أن تنصف أهل الحجاز فى مكة المكرمة والمدينة المنورة، لا أن تقع فى الخطأ الذى وقع فيه بنو أمية ممثلين فى يزيد بن معاوية والحجاج بن يوسف الثقفى الذين كرروا الخطأ أسلافهم قبل دخولهم الإسلام الحنيف.

كما نجد وصيتين على هذا المنوال تقريباً للخليفة المهدى تتميزان بالإيجاز والبلاغة والحكمة، الوصية الأولى وجهها لوزيره الفضل بن الربيع، يقول فيها:

((إنى قد وليتك ستر وجهى وكشفه، فلا تجعل الستر بينى وبين خواصى سبباً لضغنهم بقبح ردك، وعبوس وجهك؟ وقدم أبناء الدعوة فإنهم أولى بالتقديم، وثن بالأولياء، واجعل للعامة وقتاً إذا دخلوا أعجلهم ضيفه عن التلبث، وصرفهم عن التمكث))[1].

نلحظ فى هذه الوصية المهدية: الايجاز البليغ الذى أراد منه الراعى عدم إسدال وزيره الحجب بينه وبين الرعية وذلك بسوء الكلام وحجب بشاشة الوجه، لأنه هو واجهة الخلافة فإما أن يحسن إليها وإما أن يسئ.

ثم يقسم الرعية فى أهميتهم إلى أقسام ودرجات بحسب مقاماتهم وعظيم شانهم وذلك لإعطاء الجميع ما يستحقونه من حقوق فى وقت وجيز لا يطغى على غيره.

وهذه الأمور كلها وصايا سلطانية غلفت بغلاف الأدب واتسمت بسمات البلاغة كقوله: ((إنى وليتك ستر وجهى وكشفه)) فيا له من تعبير موجز يبين نوعية أخطر الأعمال لأهم الرجال المقربين من الخليفة وهو ما يطلق عليهم "البطانة".

---

[1] زهر الآداب: للحصرى القيروانى- ٢/٥٥٠.

وفى مجال آخر نجد وصية أخرى للمهدى عندما قال رجل له: عندى نصيحة يا أمير المؤمنين، فقال: لمن نصيحتك هذه؟ لنا، أم لعامة المسلمين، أم لنفسك؟ قال: لك يا أمير المؤمنين .....، قال المهدى حينئذ: ليس الساعى بأعظم عورة ولا أقبح حالاً ممن قبل سعايته، ولا تخلو من أن تكون حاسد نعمة، فلا نشفى غيظك. أو عدوا فلا نعاقب لك عدوك!

ثم أقبل على الناس فقال: لا ينصح لنا ناصح إلا بما فيه لله رضا، وللمسلمين صلاح، فإنما لنا الأبدان وليس لنا القلوب ومن استتر عنا لم نكشفه ومن بادرنا طلبنا توبته، ومن أخطأ أقلنا عثرته، فإنى أردى التأديب بالصفح أبلغ منه بالعقوبة والسلامة مع العفو أكثر منها مع المعاملة، والقلوب لا تبقى لوال لا ينعطف إذا استعطف ولا يعفو إذا ظفر، ولا يرحم إذا استرحم))[1].

نستطيع أن نجزم بان هذه الوصية تعد نموذجاً رائعاً للوصية السلطانية شكلاً ومضموناً، فمن حيث المضمون تتضح لنا قوة شخصية الخليفة المهدى ورفضه لأساليب السعاية والوشاية بين الراعى والرعية، كما أن الوصية زاخرة بالحكم الرائعة مثل قوله: ((ليس الساعى بأعظم عورة ولا اقبح حالاً ممن قبل سعايته))، وكذلك قوله ((إنما لنا الأبدان وليس القلوب))، ((والتأديب بالصفح أبلغ منه بالعقوبة))، وغيرها مما تعد دروساً فى جامعة الحياة عامة والسلطان بخاصة. كل ذلك من خلال نص متكامل تسوده موسيقى لفظية يغمرها الجرس الموسيقى المنتشر عبر كلمات النص التى يسيطر عليها التجانس اللفظى وازدواج الجمل المتناسقة.

ونجد وصية سلطانية مطولة أكثر من سابقتها لهذا الخليفة العباسى البليغ الحكيم وقد وجهها لابنه موسى الهادى ولى عهده وقائد جنده إلى خراسان الأرض التى ناصر أهلها أمر الخلافة العباسية وقدموا أرواحهم ودماءهم لها، لكن دوام الحال من المحال، فقد انتفض جزء منهم معترضين على بعض عمال المهدى ،

---

[1] انظر زهر الآداب: للحصرى القيروانى – ٣٥٦/٢. ولكن لم يذكر كلام الساعى الذى قد يكون المهدى قطع عليه سعايته، أو لأن كلامه لا يستحق الذكر بل يفهم من السياق.

فوجه إليهم ابنه الهادى مع جيش للسلام والحرب معـاً، بعـد أن استشـار وزراءه وأبناءه، ثم قدم هذه الوصية القيمة له، ونلاحظ عليها جمال أسلوبها الأدبى، وجزالته وقوته، وكونه زاخراً بالأساليب الفنية المتعددى التى تدل على تمكن قائلها من زمام القول المعبر عن عمق المعنى المستهدف.

فمن حيث المضمون نجده يتلخص فى أمرين: أولهما: نصح المهدى ابنـه بالتمسك بتقوى الله تعالى دائما وأبداً، وكانما يذكره بالحديث النبوى الشريف القائل: ((من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤونة الناس، ومن التمس رضا النـاس بسخط الله وكله الله إلى الناس))[١]، اما المضمون الثانى: فقد أوصاه بأهل خراسـان خيراً لأسباب تاريخية عديدة.

وأما من حيث الأسلوب فنرى، المهدى يعمد إلى أساليب فنية هى الغاية فى الرقى وروعة التعبير وعمق التصوير يظهر ذلك فى عبارات خلابة متعددة مثـل: إن أهل خراسان أصبحوا أيدى دولتنا وسيوف دعوتنا، نزاحم ركن الدهر ببصائرهم فهم عماد الأرض إذا أرجفت كنفها، وحتوف الأعداء إذا برزت صـفحتها، ألبسـهم لباس الذل وقناع الخوف فظاهر عليهم لباي كرامتك، وأنزلهم فى حـدائق نعمتـك، وغير ذلك من الصور الفنية التى بناها على أسس التشخيص والتجسيم الذى جعـل للمعنى طلاوة وطرافة وتأثيراً، حيث يقول فى وصيته هذه[٢]: ((أى بنى، إنك قـد أصبحت لسمت عيون العامة نصباً ولمثنى أعطاف الرعية غاية، فحسـنتك شـاملة واساءتك نامية وأمرك ظاهر فعليك بتقوى الله عزوجل وطاعتـه، فاحتمـل سـخط الناس فيها، ولا تطلب رضاهم بخلافه فإن الله عزوجل كافيك من أسـخطه عليـك إيثارك رضاه، وليس بكافيك من يسخطه عليك إيثارك رضاه من سواه ثم اعلـم أن لله تعالى فى كل زمان عترة من رسله وبقايا من صفوة خلقه وخبايا لنصرة حقـه، يجدد حبل الإسلام بدعواهم ويشيد أركان الدين بنصرتهم ويتخذ لأولياء دينه أنصاراً

---

[١] جامع الترمذى: باب عاقبة من التمس رضا الله بسخط الناس، ومن عكسه رواية عائشة رضى الله تعالى عنها.

[٢] العقد الفريد: لابن عبد ربه - ٢٢٨/١.

وعلى إقامة عدله أعواناً، يسدون الخلل ويقيمون الميل وسيوف دعوتنا الذين نستدفع المكاره بطاعتهم، ونصرف نزول العظائم بمناصحتهم وندافع ريب الزمان بعزائمهم ونزاحم ركن الدهر ببصائرهم فهم عماد الأرض إذا أرجفت كنفها، وحتوف الأعداء إذا برزت سفحتها وحصون الرعية إذا تضايقت الحال بها. قد مضت لهم وقائع صادقات، ومواطن صالحات، أخمدت نيران الفتن، وقصمت دواعي البدع، وأدلت رقاب الجبارين، ولم ينفكوا كذلك ما جرو مع ريح دولتنا، وأقاموا في ظل دعوتنا واعتصموا بحبل طاعتنا، التي أعز الله بها ذلتهم، ورفع بها ضعتهم، وجعلهم بها أرباباً في قطار الأرضين وملوكاً على رقاب العالمين، بعد لباس الذل، وقناع الخوف، وإطباق البلاء، ومخافة الأسى وجد البأس والضر، فظاهر عليهم لباس كرامتك، وأنرلهم في حدائق نعمتك ثم أعرف لهم حق طاعتهم، ووسيلة دالتهم وماتة سابقتهم وحرمة مناصحتهم بالإحسان إليهم، والتوسعة عليهم والإثابة لمحسنهم والإقالة لمسيئهم)).

ثم نرى المهدى يركز القول في وصيته على مضامين هي الغاية في الأهمية مثل: الدعوة إلى كسب العامة بجميع الطرق وأهمها شيوع العدل، كما أمره بحسن اختيار البطانة الصالحة، وتقريب الفقهاء والصالحين، حيث يقول المهدى مكملا وصيته: ((أى بنى: ثم عليك العامة، فاستدع رضاها بالعدل عليها، واستجلب مودتها بالإنصاف لها، وتحسن بذلك لربك، وتزين به في عين رعيتك، واجعل عمال القدر وولاة الحجج بين يدى عملك، ونصفة منك لرعيتك وذلك إن تأمر قاضى كل بلد، وخيار أهل كل مصر، أن يختاروا لأنفسهم رجلاً توليه أمرهم، وتجعل العدل حاكماً بينه وبينهم، فإن أحسن حمدت وإن أساء عذرت هؤلاء عمال القدر وولاة الحجج، فلا يضيعن عليك ما في ذلك- إذا انتشر في الآفاق، وسبق إلى الأسماع- من انعقاد ألسنة المرجفين، وكبت قلوب الحاسدين، وإطفاء نيران الحروب، وسلامة عواقب الأمور، ولا ينفكن في ظل كرامتك نازلاً، وبعرا حبلك متعلقاً، رجلان: أحدهما كريمة من كرائم رجالات العرب وأعلام بيوتات الشرق، له أدب فاضل، وحلم راجح، ودين صحيح، والآخر له دين غير مغموز، وموضع غير

مدخول، بصير بتقليب الكلام، وتصريف الرأى وأنحاء الأدب، ووضع الكتب، عالم بحالات الحروب، وتصاريف الخطوب، يضع اداباً وآثاراً باقية، من تجميل محاسنك، وتحسين امرك، وتدابة ذكرك، فتستشيره فى حربك، وتدخله فى أمرك، فرجل أصبته كذلك فهو يأوى إلى محلتى، ويرعى فى خضرة جنانى، ولا تدع أن تختار لك من فقهاء البلدان، وخيار الأمصار، أقواما يكونون جيرانك وسمارك، وأهل مشاورتك فيما تورد، وأصحاب مناظرتك فيما تصدر، فسر على بركة الله، أصحبك الله من عونه وتوفيقه دليلاً يهدى إلى الصواب قلبك، وهادياً ينطق بالحق لسانك)).

ورغم العمق الشديد الذى نراه فى هذه الوصية السياسية القوية إلا أن جمالها الأسلوبى فاق مضمونها الحكيم، فقد وظف الخليفة الأديب التصوير الفنى لخدمة معانيه التى يرمى إليها حيث ذلك الاستعارة والمجاز لإيصال هدفه فقد جمع العديد من الصور الاستعارية مثل: تجعل العدل حاكما بينه وبينهم، استجلب مودة رعيتك بالإنصاف، جروا مع ريح عودتنا، وأقاموا فى ظل دولتنا، اعتصموا بحبل طاعتنا، فكل هذه العبارات السابقة واللاحقة ما هى إلا مجموعة منتظمة من الاستعارات يحكمها قياس منطقى منظم، حيث خلع على الأمور المعنوية صفات بشرية وحسية، فالعدل المعنوى يضحى حاكم بين الوالى والرعية والطاعة المعنوية يصبح لها حبل متين ملموس والخوف المعنوى صار له قناع محسوس والكرامة المعنوية أضحت خير لباس حسى، والنعمة أصبحت حدائق مثمرة، وهكذا نرى هذا النص النثرى يكتنز باستعارات جمالية عديدة تدل على أن قائلها يميل للتميز بصافى الكلام حبث حول المعنوى لحسى، او الكائنات حية وذلك لأنه أدرك أن جمال الأسلوب أو بلاغته فى اكتشاف العلاقات بين الأشياء المتباعدة بل لا جناح على البليغ أن تكون صوره التى تشكلها قوة التخيل والملاحظة عنده غير موجودة فى عالم الواقع، أو غير مدركة فى مجملها للحس، ولكن المهم أن تتألف عناصر هذه

الصور في نسق يقبله العقل ويعجب به الذوق، وذلك كما يرى العديد من علماء النقد والبلاغة[1].

وعلى وجه العموم: نلحظ أن وصايا الخلفاء العباسيين في صدر دولتهم كانت تمثل دستوراً حكيماً، وقانوناً مستقيماً، ونبراس هداية في الحكم خاصة والحياة عامة لأنها صدرت عن أشخاص أولو ألباب واعية، وفكر ناضج، وتجربة ثرية، وعاطفةصادقة لاسيما إذا كانت الوصية للأبناء فهي إذن معلم بارز في عالمي الحكم والفصاحة معاً.

••••••••

(١) انظر على سبيل المثال: د. جابر عصفور في كتاب: الصورة الفنية في التراث النقدى والبلاغى – ص٧، وكذلك د. محمد زغلول سلام في كتاب: تاريخ النقد العربى إلى نهاية ق٤ هـ – ص ١٨٦، د. مصطفى ناصف في الصورة الأدبية – ص٨.

أما المميزات الفنية لكتابة الخلفاء العباسيين:

فتلاحظ أن الكتابة الفنية عند خلفاء بنى العباس فى العصر الأول وهى المتمثلة فى رسائلهم وعهودهم ووصاياهم تعد قليلة الوسائل الفنية فى مجملها على العكس من خطابتهم، وذلك لأن الخطيب يتحدث إلى جمع من الناس حرصاً منه على كسب عقولهم وإقناعهم مما يوجب معه استخدام كل الوسائل الفنية المعينة على الجذب.

بينما الرسائل أو العهود أو الوصايا فهى فى الغالب تكون موجهة لفرد واحد أو حتى لجماعة ولكن فى أمر محدد وشأن معين يغلب عليه جانب العقل والمصلحة فلا يتسع معه المجال لما يتسع معه فى الخطب.

كما نلاحظ أن الكتابة لدى الخلفاء يغلب عليها جانب الأسلوب التقريرى المباشر والعبارات ذات الدلالة المحددة المتعارف عليها بعيداً عن التزويق الفنى والجمال البلاغى وذلك لكى لا يخطئ الناس فى فهمها أو تذهب العقول بعيداً فى تفسيرها، فيعمد الكاتب مباشرة إلى فكرته من غير تكلف أو تصنع وإن كانت لا تخلو تلك الكتابة الرسمية من بعض الصور الفنية الجمالية بيد أنها قليلة موجزة وغير مكررة، وإن كانت لا تخلو من فصاحة وجمال.

ولكن لا يسعنا أن نتغاضى عن ذلك الجمال الفنى البين الذى لاحظناه ودرسناه فى جانب الوصايا، لأن الخليفة يوجهها لمن يحبه ويثق فيه ويتوخى له الخير، كوصية الخليفة المهدى لابنه وولى عهده موسى الهادى التى زخرت بسيل منهمر من وسائل التصوير البليغة المبدعة، إلى جانب صدق العاطفة التى تجلت فى الحرص على النصح بتأثر شديد وانفعال عميق وخلاصة تجربة السياسة والملك والحياة بعامة.

إذن فأكثر انواع الكتابة بروزاً فنياً هى الوصايا، وأقلها هى العهود لما تمتاز به من رسمية مسؤولة عن مصير الأمة فلم تترك الواقعية ودقة التعبير وصدقه المجال واسعاً للصور والخيال. لأن الموقف يستدعى ذلك التتابع الفكرى الجاد.

كما حرص أولئك الخلفاء على تقوية أسلوبهم فى هذا النـــوع مـــن الكتابـــة بالديباجة الإسلامية وذلك عن طريق البدء بالبسملة، وكثرة إيراد الآيـــات القرآنيـــة الكريمة، والألفاظ الدينية وكثرة التحميدات، مما جعل لها طابعاً خاصـــاً لـــم يتـــأثر بالثقافات الأجنبية التى ظهرت فى ذلك العهد، إلا إن كان الأمـــر لا يعـــدو النـــزر اليسير، مما يعارض ما ذكره بعض الباحثين من طغيان وسيادةتلك الثقافات التـــى استمد منها العرب معارفهم وآدابهم، بل كانت فى الواقع تلى العلوم الإسلامية فـــى الرتبة بشكل بين لاحظناه فيما ورد نصوص نثرية سابقة.

******

الفصل الثالث
فـــن التـوقيمـــات

التوقيعات: من فنون النثر التى ظهرت فى العصر العباسى، وهى عبارات موجزة بليغة يعلق بها الخليفة أو الوالى أو الوزير على ما يرفع إليه من شكاوى ورسائل، رما يعرض عليه من طلبات، وتكون فى الغالب من المأثورات وجوامع الكلم وخصوصاً الآيات القرآنية أوالأحاديث الشريفة أو أبيات الشعر أو الأمثال والحكم[١].

والتوقيعات من الفنون التى أكثر العباسيون الكتابة فيها، حيث يراد بها التعليق على الرسائل والشكاوى التى كانت ترفع للخليفة العباسى، نتيجة لكثرتها حيث أنه يبعث بها كل من عرضت له حاجة من الشعب فقد كان الخلفاء مضطرين أن يوجزوا فى ردودهم، ويقلوا فى عباراتها، ولما اتسع الملك وكثرت الرسائل والمسائل اضطروا مع ذلك إلى الاستعانة بأولى ثقتهم من الوزراء والولاة والكتاب لينوبوا عنهم فى هذا الشأن ولم يلبثوا طويلا حتى أنشئوا (ديوان التوقيع) للنظر فى المظالم ورقاع الشكاوى وكانت تعرف بالقصص[٢].

ورغم أن هناك من يرى أن التوقيعات قد بدأها ملوك الفرس ووزراؤهم الذين تعودوا أن يوقعوا بها على ما يقدم إليهم من تظلمات أفراد الرعية وشكاواهم ثم حاكاهم خلفاء بنى العباس ووزراؤهم فى هذا الصنيع[٣]، إلا أن من يرجع للعهود الإسلامية الأولى يجد أن الخلفاء الراشدين منذ صدر الاسلام كانوا يوقعون حيث ذكرت أمهات المصادر طائفة من توقيعاتهم سواء فى عصر الراشدين[٤] أم من أتى بعدهم من بنى أمية[٥] إلى أن ازدهرت وكثرت على أيدى العباسيين.

---

[١] انظر: تاريخ آداب اللغة العربية: جرجى زيدان ٤٣٤/١، وانظر: فى الأدب العربى القديم- العصر العباسى، د. حمد صالح الشنقيطى- ص ١٨٣.

[٢] انظر: الكتابة الفنية فى مشرق الدولة الإسلامية فى القرن الثالث الهجرى: د. حسنى ناعسة- ص ٢٤٣.

[٣] انظر: العصر العباسى الأول: د. شوقى ضيف – ص ٤٨٩.

[٤] انظر: جمهرة رسائل العرب: جـ١ / ص ٦٠٦.

[٥] انظر: المصدر السابق: جـ٢/ ص ٥٧٤.

وقد شاعت التوقيعات بين الناس فى العصر العباسى حيث كان يكتبها الكتاب ويتحفظونها ويتداولونها، وقدسموا الشكاوى والظلامات بالقصص لما تحكى من قصة الشاكى وظلامته، كما أسموها بالرقاع تشبيها لها برقاع الثياب[١].

وقد أولى الخلفاء العباسيون الكتابة شأناً عظيماً وخصوصاً الرسائل التى جعلوا لها ديوانا خاصاً، ويتفرع عنه التوقيع والخاتم. وهو الديوان الذى حرص خلفاء بنى العباس فى العصر الأول خاصة أن يكون مثاراً للبلاغة ومجالاً لظهور براعة الكاتب ومواهبه وصناعته وقدراته الذهنية بل وكياسته وفطنته، وخصوصاً أن "ميزة التوقيع الجمع بين الإيجاز والجمال والقوة"[٢].

كما حرص اولئك الخلفاء العباسيون على التوقيعات منذ بداية تأسيس دولتهم لاسيما وأنها كانت تنسجم فى قصرها وبلاغتها وقوة تأثيرها مع ذلك العهد الذى لم تتعم فيه الدولة بالاستقرار التام بعد حيث نجدها لدى الخليفة الأول السفاح وهى توقيعات عديدة وفصيحة وهادفة ولها أساليب متنوعة[٣]، لعل أبرزها الاقتباس من القرآن الكريم، مثل توقيعه إلى أحد عماله وقد تظلمت منه رعيته. ((وما كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً))[٤]. اى يتبرأ من الوالى الظالم ويهدده بعزله عن عمله.

وفى توقيع مائل أرسله لقوم شكوا غرق ضياعهم فى ناحية من نواحى مدينة الكوفة: ((وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ))[٥]، فكأنما هو يخوفهم بتشبيههم بقوم نوح عليه السلام الذين أغرقهم الله تعالى بسبب ضلالاهم وغيهم.

كما نرى **السفاح** يقتبس أحد توقيعاته من القرآن الكريم ولكن ليس بالطريقة السابقة التى يوقع بالآية الكريمة كما هى دون تغيير، إنما بطريقة التأثر الكبير بها، حيث كتب إليه جماعة من أهل الأنبار يذكرون إن منازلهم أخذت منهم وأدخلت فى

---

[١] انظر: العصر العباسى الأول- د. شوقى ضيف ص ٤٨٩.

[٢] انظر: تاريخ الأدب العربى: أحمد حسن الزيات – ص ٢٤٥.

[٣] انظر: توقيعاته فى العقد الفريد: لابن عبد ربه ٤/٢٠٠.

[٤] سورة الكهف: آية ٥٠.

[٥] سورة هود: آية ٤٤.

البناء الذى أمر به ولم يعطوا أثمانها، فوقع: هذا بناء أسس على غير تقوى ثم أمر برفع قيم منازلهم إليهم.

والسفاح هنا يستفيد من الآية الكريمة التى تذكر المسجد الذى أسس على غير تقوى وتحرم الصلاة فيه[١] اى أن الخليفة لم يوافق على الظلم رغم أنه هو الذى أمر بهذا البناء لكنه أصلح الوضع بعد تظلمهم.

ثم نقرأ للسفاح توقيعاً حكيماً يقول فيه: ((من صبر فى الشدة شارك فى النعمة)). وذلك حينما شكى إليه جماعة من بطانته احتباس أرزاقهم، ثم أمر بأرزاقهم. وهو يعنى هنا أن الشريك فى العسرة لابد أن يناله نصيب فى اليسر، لأنه ليس جزاء الإحسان إلا الإحسان. وهذه حكمة جلية أراد أن يوصلها السفاح إلى بطانته.

اما بقي توقيعات هذا الخليفة المؤسس الأول للدولة العباسية فهى من الكلام البليغ الموجز المعبر فحسب، وليس اقتباساً أو تضميناً او حكمةاو سواها. وذلك مثل توقيعه لأبى جعفر وهو يحارب ابن هبيره أحد اعداء دولة بنى العباس بمدينة واسط: ((إن حلمك أفسد علمك، وتراخيك أثر فى طاعتك، فخذ لى منك، ولك من نفسك)). كما وقع فى نفس الغرض لأبى جعفر وذلك حينما راجعه فى ابن هبيرة- العدو نفسه- أكثر من مرة: ((لست منك ولست منى إن لم تقتله)).

فالموقف فى هذين التوقيعين استدعى المعنى الحاسم، والشدة الغليظة، لاسيما وأن الدولة فى طور التأسيس ولا مجا للتغاضى أو التراجع الذى قد يهز سمعة الدولة الجديدة. لذا فقد استدعى هذا المعنى القاسى ألفاظاً مباشرة تخدمه وتوصله بصورة سريعة ومنجزة فلم يكن هناك متسع لاضافات بلاغية.

وتكرر نفس الأسلوب المباشر فى مناسبة أخرى، وذلك حينما استأذنه أبو مسلم الخراسانى فى الحج وفى زيارته، وذلك فى كتاب أرسله له، فوقع إليه: ((لا أحول بينك وبين زيارة بيت الله الحرام، أو خلينته، وإذنك لك)).

---

[١] انظر: سورة التوبة- الآية ١٠٨ التى حرمت الصلاةفى مسجد الضرار الذى بناه المنافقين فى المدينة المنورة.

حيث أن المناسبة لم تكن تستدعى أكثر من هذا الأسلوب السهل المباشر، وكانه رد على طلب بالإيجاب أو الرفض، فلم ير السفاح موجبا للرفض، أو لتنميق الأسلوب،

وهكذا رأينا كيف كانت توقيعات هذا الخليفة التى تنسجم مع شخصيته القوية وقراراته الحاسمة وردوده السريعة التى تتلائم مع ذلك العهد، لاسيما وقد اشتهر بالبلاغة وارتجال القول الفصيح فى مجال الخطابة، مما انعكس على توقيعاته التى تمثله أبلغ تمثيل.

أما الخليفة القوى الثانى أبو جعفر المنصور: فقد وجدنا له توقيعات كثيرة[١]، تفوق سلفه السفاح، وما ذاك إلا أنه تولى الخلافة مدة زمنية أكثر منه وقد استقرت له الأمور فمضى يصرف أمور دولته بشتى الوسائل القولية والفعلية والكتابية، ومن ضمنها توقيعاته لعماله المنتشرين فى أنحاء البلاد المترامية الأطراف.

وكان مثله مثل السفاح ومن سبقهم من الخلفاء الراشدين والأمويين يوقعون بالآيات الكريمة التى تعبر أبلغ تعبير عن الموقف والهدف الذى يرمى إليه مثل توقيعه فى كتابه إلى عبد الله بن على عمه: ((ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ))[٢]، فاجعل الحظ لى دونك يكن لك كله": حيث يريد المنصور هنا أن يعلم أحد أقاربه الأقربين وهو عمه فناً من فنون السياسة مستعيناً بكتاب الله الكريم المعلم الكبر للمسلمين، وهو حسن التعامل وصدق الإخلاص الذى يجعل الطرف الآخر يرد بالمثل أو بما هو أفضل.

كما يستخدم المنصور نفس الأسلوب القرآنى فى توقيع آخر لقوم تظلموا من عاملهم كتب فيه: ((لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ))[٣]، فهو يطمئنهم إلى أنه لن يولى عليهم ظالماً. وذلك بأسلوب موجز بليغ هادف.

---

[١] انظر: توقيعاته فى العقد الفريد: لابن عبد ربه – ٤/٢٠١.

[٢] سورة فصلت: آية ٣٤.

[٣] سورة البقرة: آية ١٢٤.

وكذلك كتب فى توقيع مماثل قصة رجل قطعت عنه أرزاقه: ((مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا))[١]، مبينا له أن الرزق من الله تعالى هو المعطى وهو الوهاب والذى يمنع إذا أراد.

ووقع بنفس الأسلوب إلى شخص لم يحج أبداً سأله أن يحج حيث كتب إليه: ((وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً))[٢]. أى أنه يريد أن يبين لهذا الرجل ولغيره من الرعية غير القادرين على الحج بان هذه الفريضة للمستطيع فحسب.

كما وقع المنصور بأساليب بلاغية أخرى على كتبه التى يبعثها لعماله ورعيته، كمثل توقيعه بحديث شريف يقول: ((كما تكونون يمر عليكم))، وذلك حينما شكا إليه أهل الكوفة عاملهم، فهو يعنى أن الراعى من الرعية، فإن صلحت أصح الله تعالى امر من يتولاها، وإن فسدت فسد راعيها، عنوع من الثواب والعقاب من قبل الخالق ثم من طرف الخليفة.

ومن نماذج توقيعاته المسجوعة: توقيعه لعامله على خراسان يتهدده ويتوعده: ((شكوت فأشكيناك، وعتبت فأعتبناك، ثم خرجت عن العامة فتأهب لفراق السلامة)).

ومثل توقيعه فى كتاب أتاه من صاحب الهند يخبره ان جنداً شغبوا عليه وكسروا أقفال بيت المال فأخذوا أرزاقهم منه: ((لو عدلت لم يشغبوا، ولو وفيت لم ينهبوا)). كأنما يعطيه درساً فى السياسة والحكم[٣].

وفى توقيع مماثل شكلاً ومضموناً نراه يكتب لصاحب مصر حين كتب يذكر نقصان النيل: ((طهر عسكرك من الفساد يعطيك النيل القياد)). فهذا التوقيع بمثابة الحكمة الدينية والخلقية والسياسية يهديها المنصور لعامله.

---

[١] سورة فاطر: آية ٢.

[٢] سورة آل عمران آية ٩٧.

[٣] انظر: هذين التوقيعين للمنصور:فى تاريخ الطبرى – ٢٨٦/٩.

ومن توقيعاته التى تجود بأساليب البيان والبديع قوله: ((إن لى فى قفاك عيناً وبين عينيك عينا ولها أربع آذان)). حيث عبر المنصور بالمجاز عن الحقيقة لكى يوضح المعنى ويؤكد الهدف، فقد عبر بالجزء عن الكل لأنه رمز بالعين والأذن للجاسوس الذى ينقل إليه الأخبار والأحداث، بل الجواسيس الذين يبثهم على جميع عماله فى كل الأمصار، ومنهم عامله على أرمينية الذى بعث إليه بهذا التوقيع.

كما يستخدم أسلوب الكناية والرمز فى توقيعه لعمه عبد الله بن على يحذره من الفتن ومغبة الأحداث حيث يقول فيه: ((لا تجعل للأيام فى وفيك نصيباً من حوادثها)). فهو يذكر بانهما فى مركب فرابة واحد وبالتالى يشتركان فى نفس المصير فيجب أن يأخذ هذا الأمر فى الحسبان.

ويستخدم أسلوب المطابقة والمحاسبة فى توقيع له على كتاب جاءه من عامله على أرمينية وفيه خطأ، كتب فيه: ((استبدل بكاتبك، وإلا استبدل بك)). فالمنصور القوى يستخدم أسلوب البلاغة فى التأديب بطريقة موجزة معبرة يظهر فيها التقابل بين المعنيين.

كما نجد المنصور توقيعات أخرى[١] تعتمد اليسر والسهولة والبساطة والإيجاز البين، ولكنه يهدف من وراءه لحسم الأمر، وخاصة الأمور المادية منها، لاسيما وقد عرف عنه الحرص والتقشف حتى فى مظهره الخاص[٢]. وذلك مثل توقيعه لرجل شكا إليه عمله: ((سل الله من رزقه)). وتوقيعه[٣] فى قصة رجل سأله أن يبنى بقربه مسجداً لأن مصلاه عن بعد: ((ذلك أعظم لثوابك)). وكذلك مثل توقيعه فى قصة رجل شكا الدين: ((إن كان دينك فى مرضاة الله قضاه)).

---

[١] العقد الفريد: لابن عبد ربه – ٢٠٢/٤.

[٢] تاريخ الخلفاء: للسيوطى – ص ٢٥٩.

[٣] انظر : هذا التوقيع للمنصور فى تاريخ الطبرى – ٢٨٧/٩.

ونلاحظ فى جميع هذه التوقيعات الحاسمة الموجزة أنها تربط المعنى بتقوى الله رمخافته ورجاء ثوابه وذلك لكى يقطع الطريق على الطامع فى الدنيا وفى ما يملكه الخليفة.

ثم يأتى بعده **الخليفة المهدى بن المنصور** الذى سار على نهج والده وعمه فى التوقيع بالآيات الكريمات[١] مثل توقيعه على كتاب صاحب أرمينية الذى كتب إليه يشكو سوء طاعة رعاياه: ((خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ)[٢] ففى هذه الآية العظيمة شمولاً موجزاً لأبجديات سياسة الرعية كما أنها حكمة أخلاقية عظيمة للتعامل بين البشر على وجه العموم.

ثم وقع فى قصة رجل حبس فى دم: ((وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ)[٣]، ففى هذه الآية الكريمة نموذجاً بلاغياً حقيقياً للإيجاز المعبر الوافى وذلك فى كلمة "حياة" التى تعنى عدة معانى مطنبة عديدة تملأ العديد من الصفحات.

ومن توقيعات المهدى البليغة توقيعه بمثل شهير من أمثلة العصر الجاهلى حيث وقع فى قصة قوم تظلموا من عاملهم وسألوه أشخاصه إلى بابه: ((قد أنصف القارة من راماها)). ويحكى هذا المثل قصة رجلين أحدهما من بنى قارة وهى قبيلة جاهلية اشتهر رجالها بانهم رماة عصرهم، فاختار الرجل الآخر المراماة فقال القارى حينئذ: هذا المثل تفاخراً بقدرتهم[٤].

أما بقية توقيعات المهدى فهى فى غاية البلاغة والإيجاز وإن كانت من إنشائه الخاص، فكانت عامرة بالفصاحة والأسلوب المؤثر، مثل توقيعه لشاعر مدحه فبالغ فى مدحه وقيل أنه مروان بن أبى حفصه، يقول فيه: ((أسرفت فى مديحك فقصرنا فى حبائك)). حيث استخدم المهدى أسلوب المقابلة فى توقيعه لكى

---

[١] انظر: توقيعات المهدى فى العقد الفريد – ٢٠٢/٤.

[٢] سور الأعراف: آية ١٩٩.

[٣] سورة البقرة – آية ١٧٩.

[٤] انظر: العقد الفريد – ٢٠٢/٤. ومجمع الأمثال للميدانى – ٤٨٩/٢.

يوضح للشاعر المداح هدفه، مع أن هذا الخليفة اشتهر بانه كان جواداً ممدحاً[١]، ولكنه أيضا عرف بأنه حسن الاعتقاد معتدلاً لذا لم يوافق الشاعر على مبالغاته بعدم إعطائه الجائزة المادية التى كان يطمح إليها.

كما كتب فى توقيع مشابه من حيث الأسلوب السابق: ((ليت إسراعنا إليك، يقوم بإبطائنا عنك)). وذلك فى طلب رجل من بطانته استوصله. فهو هنا يستخدم معه أسلوب الوعد والوعيد، حيث يأمل أن يكون العطاء سبباً للإخلاص، مستخدماً طريقة المقابلة اللفظية والمعنوية معاً بأسلوب هو الغاية فى البلاغة وجودة التعبير.

كما وقع إلى أحد الخارجين عليه وهو يوسف بن إبراهيم البرم الذى خرج على المهدى بخراسان عام مائة وستين للهجرة ثم أمنه المهدى بكتاب وقع فيه توقيعاً بليغاً شاملاً معبراً أيما تعبير بألفاظ قليلة تحمل معان كبيرة بل خطيرة، وهو: ((لك أمانى ومؤكد أيمانى))، حيث استخدم أسلوب الجناس اللفظى لكى يؤكد المعانى التى أراد إيصالها إلى خصمه، وذلك بين كلمتى أمانى وأيمانى، فالأمان الذى أنعم عليه تؤكده الأيمان الغليظة.

ولكننا نجد للمهدى توقيعات فصيحة بيد أنها سهلة ومباشرة فى ألفاظها ومعانيها، لانكاد نلحظ فيها أساليب بليغة وعميقة كما فى توقيعاته السابقة، مثل توقيعه إلى صاحب خراسان الذى كتب إليه يخبره بغلاء الأسعار: ((خذهم بالعدل فى المكيال والميزان)) لأنه ركز على العدالة مع الرعية فى كل الأحوال.

وكذا مثل توقيعه الموجز السهل: ((أنا ساهر وانت نائم)) وقد أرسله إلى صاحب خراسان فى أمر مهم جاءه، يريد تنبيهه لما يحدث من أمور عظام، وذلك عن طريق الطباق الملحوظ السريع.

وهذا التوقيع يشبه فى سهولة ألفاظه ومباشرة معانيه توقيعه الذى وقعه فى قصة رجل شكا الحاجة: ((أتاك الغوث)). ولعل هذا التوقيع ينم عن شخصية الخليفة المهدى الذى اشتهر بالكرم والجود، ويظهر الفرق بينه وبين والده المنصور الذى اشتهر بالحرص وجمع المال وعدم تبديده، والذى ظهرت شخصيته هذه أيضا

---

[١] تاريخ الخلفاء – للسيوطى – ص ٢٧١.

فى توقيعاته لرعيته حينما يطلبون منه المدد المادى، وإن دل هذا على شئ فإنما يدل على أن هذه التوقيعات تعكس شخصيات موقعيها، وهذا الأمر يؤكد بأنها كانت من إنشاء أولئك الخلفاء، وتدل على حرصهم الشديد على فى مباشرة طلبات رعيتهم ومشكلات عمالهم بأنفسهم.

أما **الخليفة التوى الأديب هارون الرشيد** الذى ذكر عنه أنه من أميز الخلفاء وأجل ملوك الدنيا، فصيحاً له فى نظر الأدب والعلم[١] فإنه أيضا كان ممن يوقع كتبه بنفسه، حيث وجدنا له توقيعات كثيرة[٢] إلا أنها ليست أكثر بكثير من الخلفاء الذين سبقوه وخصوصاً جده أبو جعفر المنصور.

ويغلب على توقيعات الرشيد بعد مراميها، وعدم فهم مقصوده بسهولة ويسر، مثل توقيعه إلى عامله فى فارس: ((كن منى على مثل ليلة البيات))، حيث يعنى أنه يريده أن يكون منه حذراً منهياً لكل ما يريده الرشيد أو يبطشه. لاسيما وأنه وقع لعامله على خراسان توقيعاً مشابهاً إلا أنه أقرب منه معنى فى ظاهره وهو: ((إن الملوك يؤثر عنهم الحزم))، فكأنما هو يلخص له قراءة شخصيته فى إطار التهديد.

كما وقع إلى محفوظ بن سليمان صاحب خراج مصر: ((يا محفوظ، اجعل خرج مصر خرجاً واحداً وأنت أنت)). فهذا التوقيع بعيد مرمى المعنى، على العكس من التوقيعات السابقة لأسلافه من الخلفاء، وقد يكون السبب اتساع رقعة الدولة فى عهده وكثرة انشغاله فى أمور الرعية مما جعل أساليبه التوقيعية مباشرة وذات مرمى قد لا يعيه إلا صاحب الشأن نفسه، فهو هنا يوجه صاحب خراج البلاد المصرية إلى طريقة جمع الإتاوات العديدة المتكررة بان يجعلها فى مرة واحدة تكن أسهل على الجامع والمجبى منه معاً، على أن يبقى هذا العامل فى وظيفته السابقة رغم تغير طريقتها من مرات متفرقة إلى دفعة واحدة. فهذا توقيع سياسى أكثر منه

---

[١] أخبار الخلفاء- للسيوطى: ص ٢٨٣ – ٢٨٤.

[٢] أنظر: توقيعات الرشيد: فى العقد الفريد ٤/٢٠٤.

أدبى، ودلالة ذلك سهولة ألفاظه لكن معناه وهدفه يخصان المناسبة وحدها ولا ينطبق على مناسبات غيرها.

كما وقع الرشيد فى رقعة متظلم من عامله على الأهواز، وكان بالمتظلم عارفاً: ((قد ونيناك موضعه فتتكب سيرته)). أى ستحل محل هذا الظالم بشرط أن تتجنب الاقتداء بطريقته.

ومن توقيعاته السياسية المباشرة توقيعه إلى عامله فى مصر: ((أحذر ان تخرب خزانتى وخزانة أخى يوسف فيأتيك منى مالا قبل لك به، ومن الله أكثر منه)). حيث أنه من الواضح أنه ينذر عاملاً فاحت رائحة تخريبه المالى، ويجعل الانذار مضاعفاً دينياً ودنيوياً لأنه من نوع الإفساد المنهى عنه شرعياً واجتماعياً.

ومن توقيعاته المباشرة المشابهة توقيعه إلى قائده خزيمة بن خازم الذى كتب إليه أنه وضع السيف حين دخل أرض أرمينية فرد عليه موقعاً: ((لا أم لك! تقتل بالذنب من لا ذنب له!)) فهو يتعجب بأسلوب بين من طريقة فتك ذلك القائد وظلمه للأبرياء وسفك دمائهم ويطالبه بالتواقف عن ذلك، دون أية رموز أو أساليب بلاغية لأن خطورة الموقف تستدعى المباشرة والوضوح فى الأسلوب.

ومن مثل هذه التوقيعات السهلة المباشرة توقيعه إلى السندى ابن شاهك: ((خف الله وإمامك فهما نجاتك)) فهذا التوقيع سهل ميسور موجز ولكنه يعنى معانى مطنبة متنوعة بيد أنها واضحة، فكأنه يردد الآية القرآنية القائلة ((فأطيعوا الله والرسول وأولى الأمر منكم)).

وكذلك توقيعه فى كتاب بكار بن عبد الله بن مصعب الزبيرى إليه يخبره بسر من أسرار الطالبيين: ((حزى الله الفضل خير الجزاء فى اختياره إياك، وقد آثابك أمير المؤمنين مائة ألف بحسن نيتك)). فهذا يتعلق فى غاية الوضوح ويسر المعنى بحيث لا يحتاج معه الأمر إلى تعليق او إيضاح.

هذا بالنسبة لتوقيعات الرشيد المباشرة أما توقيعاته غير المباشرة وتعنى بها تلك التى يستخدم فيها الرموز البلاغية أوالكنايات أو الاقتباس أو التضمين فهى عديدة كسابقتها ولكنها تستحق التأمل فى قيمتها الأدبية أكثر من سواها، مثل توقيعه

فى كتاب ملك الروم الذى قال فيه: إنى متوجه نحوك بكل صليب فى مملكتى، وكل بطل فى جندى، فلم يسع الرشيد إلا أن يوقع فى كتابه بالآية الكريمة: ((وسَيعْلَمُ الْكُفَّارُ لمنْ عُقْبى الدَّارِ))[١]، فهو لا يرى أفضل من الرد بآية من القرآن الكريم فى معرض الجهاد والدفاع عن حياض الإسلام لاسيما أن الخالق عزوجل يجعل العاقبة للمؤمنين الموحدين.

ولكن الملحوظ أننا لم نجد لديه توقيعات قرآنية عديدة، على عكس أسلافه الذين أكثروا من التوقيعات القرآنية، ولعل السبب يعود إلى نوعية المناسبة، لاسيما ان أسلافه كانوا ف عصر التأسيس وتخويف الأعداء والاستناد فى ذلك على كتاب الله الكريم، فلما وجدت المناسبة المماثلة عند الرشيد استخدم مثل هذا النوع من التوقيع.

كما استخدم مثل هذا التوقيع فى مناسبة سياسية مهمة وهى فتنة البرامكة، حيث أنه عندما نكبوا كتب إليه يحيى البرمكى: ((إن كان الذنب يا أمير المؤمنين خاصاً، فلا تعم بالعقوبة، فإن لى سلامة البرئ ومودة الولى))[٢]. فوقع الرشيد فى حاشية الكتاب: ((قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذي فيهِ تَسْتَفْتِيانِ))[٣]. حيث إنه من الواضح حزم شديد وحسمه فى هذا الأمر الخطير الذى لخصه فى هذه الآية الكريمة التى تدل على انتهاء الأمر ووقف الجدل فيه.

أما توقيعاته الأخرى للزاخرة بأساليب البيان والبديع مع مقدرة الإيجاز فهى عديدة مثل توقيعه إلى صاحب خراسان: ((داو جرحك لا يتسع)). فهو يستخدم أسلوب الرمز والكناية لأنه يريد من عامله أن يخمد الفتنة فى مهدها قبل أن يشتعل فتيلها.

ومثل هذا التوقيع توقيعه إلى صاحب المدينة: ((ضع رجليك على رقاب أهل هذا البطن فإنهم قد أطالوا ليلى بالسهاد، ونفوا عن عينى لذيذ الرقاد)). فهو

---

[١] سورة الرعد – آية ٤٢.

[٢] انظر: هذا التوقيع لهارون الرشيد فى كتاب: الوزراء والكتاب- للجهشيارى- ص ٢٥٣.

[٣] سورة يوسف: آية ٤١.

يستخدم أسلوب الكتابة الرمزية ثم يستخدم بعده أسلوب السجع، لأنه أراد إذلال أفراد ذلك البطن المخالف، لأنهم قد تسببوا فى قض مضجعه لكثرة تمردهم، فلابدأن يعاملهم بالمثل اتقاء لشرهم.

وكذلك مثل توقيعه لعامله على خراسان: ((كل من رفع رأسه فأزله عن بدنه)) فهذا التوقيع يتكئ على الكناية الشاملة المعبرة، التى تعنى أمر بالقتل الصريح لكل من حاول الاعتراض أو الخروج عن طاعة ولى الأمر، وذلك رغبة منه فى إرساء دعائم الحكم وتثبيت أسس الدولة بعيداً عن الفتن.

أما توقيعاته المعتمدة على وسائل بيانية أخرى فهى مثل توقيعه فى قصة رجل من البرامكة: ((أنبتته الطاعة وحصدته المعصية)). فهذا التوقيع البليغ يعتمد على أكثر من فن بيانى بديعى، فأما البيانى فاستخدامه لأسلوب الاستعارة حيث جعل هذا الشخص البرمكى كالنبتة التى تزرع وتحصد، وهو يهدف أن يوضح للناس سبب نقمته على من لم تجد معه أساليب الإحسان التى نالها بسببطاعته للسلطان فكانت عاقبة عصيانه الاجتثاث. كما استخدم أسلوباً بديعياً داعما لهذا الأسلوب البيانى الاستعارى وهو أسلوب المقابلة اللفظية والمعنوية بين عباراتى أنبتته الطاعة وحصدته المعصية، مما جعل المسوغ قوياً لانتقام الرشيد من الخصم.

وفى توقيع آخر أكثر إيجازاً وقعه فى قصة شخص محبوس: ((من لجأ إلى الله نجا)). فهذا التوقيع رغم قصره إلى أنه يهدف إلى معان دينية وخلقية سامية، مستخدما أسلوب الجناس البديعى بين كلمتى "لجا ونجا" لإضفاء موسيقى لفظية مؤثرة على التوقيع ومعناه.

وفى توقيع مماثل فى مناسبة مماثلة وقع على قصة متظلم: ((لا يجاوز بك العدل، ولا يقصر بك دون الإنصاف)). فقد استخدم أسلوب الطباق بين كلمتى: يجاوز، ويقصر، لكى يوضح لذلك المنظم أنه سيستخدم معه أسلوب العدل والوسطية فلا مجاوزة ولا تقصير.

كما وقع إلى صاحب السند حينما ظهرت العصبية: ((كل من دعا إلى الجاهلية، تعجل إلى المنية)). حيث استخدم هنا أسلوب السجع اللفظى لزيادة

التخوف من العصبية التى منشؤها العقد الجاهلى قبل ظهور نور الاسلام ومساواته، وكأنما أراد اختيار فن غلب ظهوره فى ذلك العصر لخدمة المعنى المراد.

ومن توقيعات الرشيد الطويلة الزاخرة بالتمثيل التاريخى والاستشهاد الشعرى، توقيعه إلى سليمان بن أبى جعفر فى كتاب ورد عليه منه يذكر فيه وثوب أهل دمشق: ((استحييت لشيخ ولده المنصور أن يهرب عمن ولدته كنده وطئ، فهلا قابلتهم بوجهك، وأبديت لهم صفحتك، وكنت كمروان بن عمك إذ خرج مصلتاً سيفه متمثلاً ببيت الجحاف بن حكيم:

متقلدين صفائحاً هندية يتركن من ضربوا كمن لم يولد

فجالد به حتى قتل. لله أم ولدته، وأب أنهض له!)).

فهذا التوقيع يفيض بالشجاعة التى تملأ نفس الرشيد وأراد إفاضتها إلى نفس عمه الذى ظهر خوفه من بعض القبائل التى تقطن الشام، ويذكره بنسبه ومجده الذى يفوق أولئك ويستشهد بحادثة تاريخية مدعمة بالشعر الحماسى المتلائم مع الموقف، وهذا إن دل على شئ فإنما يدل على سعة ثقافة الرشيد فى النثر والشعر معاً.

وتستمر التوقيعات السياسية التى ميزت توقيعات الرشيد، ولكننا نجد له هنا توقيعين متبادلين بينه وبين يحيى بن خالد البرمكى الذى كتب إليه حين أحس بالموت وهو فى حبس: ((قد تقدم الخصم على موقف الفصل، وأنت بالأثر، والله الحكم العدل، وستقدم فتعلم)) فوقع إليه الرشيد: ((الحكم الذى رضيته فى الآخرة لك هو الذى أعدى الخصم فى الدنيا عليك، وهو من لا يرد حكمه ولا يصرف قضاؤه)).

فمن الواضح أن صاحبى هذين التوقيعين يتبادلان الاتهام ويرى كل منهما الحق بجانبه. كما يلاحظ أنه رغم تميز عباراتها بالفصاحة والسهولة، إلا أنها حاكت من أساليب البديع والبيان التى ظهرت فى معظم توقيعات الرشيد ولكنه بلا شك يفيض بالفصاحة والعمق الشديد فى معناه الذى يرمى إليه.

أما أطرف توقيع للرشيد فكان حينما بعث أحد أعماله إليه بعبد أسود. فقلب الكتاب ووقع فيه ساخرا: ((أما بعد فإنك لو وجدت عدداً اقل من الواحد، او لوناً شراً من السواد، لبعثت به إلينا))[١].

وهكذا نجد أن توقيعات الخليفة هارون الرشيد تفوق فى كثرتها توقيعات سابقيه من الخلفاء، وتمتاز بالسهولة اللفظية وتدور فى فلك السياسة وواقعها العملى أكثر من دورانها فى المضمار الأدبى.

ونأتى إلى **الخليفة المأمون** الذى نجد له أيضا العديد من التوقيعات التى يرد بها على خطابات الرعية[٢]، ونجد أنها تكاد تتشابه مع توقيعات والده الرشيد فى طريقتها، كما نلمس أن معظم توقيعاته تسودها أساليب الحكمة، بينما لا نكاد نجد له توقيعات قرآنية إلا آية واحدة وقد وقعها فى قصة متظلم من أبى عيسى أخيه وهى:((فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ))[٣]. حيث يرى المأمون ان العدالة فوق القرابة مستدلاً بكتاب الله العظيم.

أما عدا ذلك فإننا نرى الحكمة هى الطاغية على توقيعاته مثل توقيعه إلى على بن هشام فى أمر تظلم فيه منه: ((من علامة الشريف أن يظلم من فوقه ويظلمه من دونه، فأى الرجلين أنت؟)). فهو يسم القوى بالتواضع والعدل مع من هو أضعف منه وأدنى.

ومثل توقيعه إلى الرستمى فى قصة من تظلم منه: ((ليس من المروءة أن تكون آنيتك من ذهب وفضة، وغريمك خاو، وجارك طاو)). فهو يدعو من خلال حكمته العميقة إلى العدالة الإجتماعية والإحسان إلى الغير.

كما وقع توقيعاً مماثلاً فى هدفه وأسلوبه فى قصة متظلم من عمرو بن مسعدة: ((يا عمرو، اعمر نعمتك بالعدل فإن الجور يهدمها)). فهذا الأسلوب فى التوقيع قد جمع بين معانى الحكمة وأسلوب البيان المتمثل فى المقابلة بين جملة

---

[١] انظر: هذا التوقيع لهارون الرشيد: فى صبح الأعشى- للقلقشندى- ١٣/٢.

[٢] انظر: توقيعات المأمون: فى العقد الفريد – ٢٠٤/٤.

[٣] سورة المؤمنون- آية ١٠١.

اعمر نعمتك بالعدل وجملة: إن الجور يهدمها، فالعمران ضد الهدم، والعدل ضد الجور، ولم يكتف باستخدام أسلوب الطباق والمقابلة إنما أضاف إليها أسلوب الجناس اللفظي بين مفردتي: يا عمر، اعمر، وذلك لزيادة وقع تأثير الحكمة على أذن سامعها وذهنه.

ومثل توقيعه إلى عامل شكاه أهل عمله: ((أنى آثرت العدل، حصلت على السلامة، فانصف رعيتك من هذه الظلامة))[1]، حيث يزخر هذا التوقيع بأسلوب بلاغي بياني في المطابقة بين الانصاف والعدل والظلامة، وأسلوب بديعي متمثل في السجع التي انتهت به جملتي التوقيع.

ومن تواقيع المأمون المشهورة والتي تحمل نفس مضمون الحكمة ولكن بأسلوب مغاير مؤثر، توقيعه في قصة متظلم أبي عياد: ((يا ثابت، ليس بين الحق والباطل قرابة)). حيث يريد أن يوضح الفرق الكبير بين الحق والباطل في المعنى وفي النسب فهو يتبرأ من المبطلين حتى ولو كانوا قرابته، ويريد من ولاته وعماله أن يكونوا كذلك.

كما كتب إليه إبراهيم بن المهدي في كلام له: ((إن غفرت فبفضلك، وإن أخذت فبحقك)). فوقع المأمون في كتابه: ((القدرة تذهب الحفيظة، والندم جزء من التوبة، وبينهما عفو الله)). فالخليفة يعلن عفوه عن المذنب من خلال حكمة تبين حقائق النفوس البشرية في كثير من حالاتها. فالقوي قادر، النادم تائب والخالق هو الفاصل بينهما.

إضافة تلك التوقيعات السابقة تمتاز بأسلوب الحكمة وفصل المقال وتبقى تأثيرها عبر الأزمان، نجد للمأمون توقيعات بليغة بيد أنها مباشرة فهي رغم فصاحتها تريد تحقيق الهدف المراد منها دون أن تلجأ إلى محسنات لفظية أو معنوية وهي توقيعات عديدة مثل توقيعه في قصة متظلم من حميد الطوسي: ((يا أبا غانم، لا تغتر بموضعك من إمامك، فإنك وأخس عبيده في الحق سيان)).

---

[1] انظر هذا التوقيع في: كتاب خاص الخواص: للثعالبي النيسابوري- ص٨٨.

فالمأمون فى هذين التوقيعين المباشرين أراد تحذير بطانته بأسلوب بين واضح من أن يستغلوا قربهم منه، لأنه سيساوى بينهم وبين غيرهم من أفراد الرعية.

كما نجد له توقيعات مباشرة ولكن فلى معان أخرى مثل توقيعه إلى صاحب خراسان: ((أحمد الله الطيب اذا أحلك من خليفته محل نفسه- فما لك موضع تسمو إليه نفسك إلا وأنت فوقه عنده)). فهو هنا يظهر محبته لأحد ولاته على خراسان بسبب حسن سيرته فكأنما هو يشكره على صنيع عمله بأسلوب غير مباشر.

ومثل هذا التوقيع المباشر الذى يحمل معانى الحمد والتشجيع لولاته،توقيعه فى كتاب إبراهيم بن جعفر فى فدك حين أمره بردها: ((قد أرضيت خليفة الله فى فدك كما أرضى الله رسوله فيها)). حيث رد فئ فدك التى أفاء الله بها على رسوله صلى الله عليه وسلم إلى بنى على بن أبى طالب وهو ما أراده المأمون.

ومثل توقيعه إلى الواقدى وقد كتب إليه يذكر دينا عليه ويستمنح: ((فيك خصلتان سخاء وحياء، أما السخاء فهو الذى أطلق يدك فيما ملكت، وأما الحياء فهو الذى حملك على أن ذكرت بعض دينك دون كله، وقد أمرت لك بضعف ما كتبت، فزد فى بسط يدك فإن خزائن الله مفتوحة ويده بالخير مبسوطة))[١].

كما توجد أيضاً توقيعات توجيهية مباشرة من المأمون لولاته وعماله ولكن فى مجال النقد والإصلاح وليس فى مجال الثناء والشكر السابقين، مثل توقيعه إلى بعض عماله: ((طالع كل ناحية من نواحيك، وقاصية من أقاصيك، بما فيه استصلاحها)).

ثم فى توقيع آخر مشابه ولكنه أشد حزماً، وأكثر قسوة توقيعه فى قصة متظلم من محمد بن الفضل الطوسى: ((قد احتملنا بذاءتك وشكاسة خلقك، فأما ظلمك للرعية فإنا لا نحتمله)).

حيث أنه من الواضح أن نفس المأمون قد علاها الغضب فلم يفكر فى التفنن فى أسلوب هذا التوقيع الحازم،رهذا السبب يكاد ينطبق على جميع توقيعاته التوجيهية المباشرة، مثل توقيعه فى كتاب بشر بن داود: ((هذا أمان عاهدت الله

---

[١] انظر: هذا التوقيع للمأمون: فى كتاب خاص الخاص- للثعلبى النيسابورى- ص٨٨

عليه فى مناجاتى إياه)). فهذا التوقيع سهل الألفاظ ميسور المعنى لأنه يختص بأمر مهم لا يحتمل التورية، وهو كتاب الأمان.

ومن توقيعاته الطريفة التى هدفها التأديب، توقيعه فى رقعة مولى طلب الكسوة: ((لو أردت الكسوة للزمت الخدمة، ولكنك آثرت الرقاد فحظك الرؤيا)). فكأنه يقرعه بلوم طريف وعقاب ظريف ويلقنه درساً فى الحياة بان الكسل قرين الأحلام.

اما أطول توقيع للمأمون فهو توقيعه فى يوم عاشوراء لبعض أصحابه وقد وافته الأموال: ((يؤمر له بخمسمائة ألف لطول همته، ولثمامة بن أشرس ثلاثمائة ألف لتركه مالا يعنيه، ولأبى محمد اليزيدى بخمسمائة ألف اكبره، وللمعلى يومر له بخمسمائة ألف لصدق لهجته ولعباس بخمسمائة ألف لفصاحة منطقه، ولأحمد بن أبى خالد بألف ألف لمخالفة شهوته، ولإبراهيم بن بويه كذلك لسرعة دمعته، وللمريسى بثلاثمائة ألف لإسباغ وضوئه، ولعبد الله بن بشر بمثلها لحسن وجهه)).

وواضح من هذا التوقيع الطويل رغبة المأمون فى تشجيع بطانته وخاصته على الصفات الحسنة الدينية والدنيوية وخصوصاً الدينية منها، وهذا التوقيع الطريف ليس طويلاً بحد ذاته إنما هو عبارة عن مجموعة أفكار يربطها هدف واحد لاينفع معه التجزئة.

وهكذا كانت توقيعات المأمون تكاد تكون هى الأكثر كما من غيره نظراً لاستقرار الحكم وثباته فى عهده وتطور دولته، وميله الشخصى إلى الأدب والفكر.

أما أقلهم توقيعات فهو عمه الخليفة الهادى حيث لم نجد له إلا توقيعين فحسب[1]، وهو فى هذا الجانب الأدبى مثله مثل سواه من الأنواع الأدبية الأخرى حيث هو الأقل من غيره من الخلفاء العباسيين فى العطاء الأدبى والإبداعى، فكان التوقيع مثالاً ملحوظاً موجزاً لكل ذلك، والسبب قصر مدة خلافته.

أما أول توقيعاته فهو ما كتبه إلى الحسن بن قحطبة فى أمر راجعه فيه: ((لقد أنكرناك منذ لزمت أبا حنيفة كفاناه الله)). فهو يهاجم هذا الشخص بسبب

---

[1] انظر: توقيعى الهادى فى: العقد الفريد : لابن عبد ربه – ٤/٢٠٢.

ملازمته لأحد أعداء الدولة العباسية وهو أبو حنيفة حرب بن قيس كما ذكره الطبرى فى تاريخه. لذا فهو يجعله من زمرة الأعداء لا الأصدقاء كما كان فى الماضى، ثم يختم توقيعه بأسلوب دعاء.

أما توقيع الخليفة الهادى الثانى والأخير، فهو توقيعه إلى صاحب إفريقية فى أمر فرط منه: ((يا ابن اللخناء أنى تتمرس؟))! فهو يستنكر على عامله فى أفريقيا خروجه على إمامه العباسى وممارسته للفتن، ويبتدئ توقيعه بنوع من الشتيمة دلالة حقده على جرأته واستهتاره بشأن الخلافة. وذلك فى لفظ موجز بأسلوب استفهام استنكارى.

وكأنما توقيعات الخلفاء تنتهى بنهاية عصر المأمون، حيث لم نجد عند خليفته المعتصم والواثق[1] توقيعات يوقعانها بانشائهما الخاص. إنما يوقع عنهموزراؤهم الكتاب. وكذلك لم نجد توقيعات للأمين وذلك لقصر مدة حكمه ولزعزعة السياسةفى عهده.

ونختم هذا الفصل بذكر السمات الفنية لفن التوقيعات الذى نما وازدهر على أيدى خلفاء العصر العباسى الأول، والتى تتلخص فيما يلى:-

أولاً: ظهرت لنا التوقيعات موجزة فى عباراتها، بليغة فى أدائها، قوية فى تأثيرها، سهلة فى معانيها لا تحتاج معه لشرح ولا لبسط.

ثانياً: رأينا التوقيعات تامة الصياغة فخمة النسيج، جزلة الصنعة، حيث انتشر فيها بعض المحسنات البديعية كالجناس والطباق، والسجع والمقابلة كما ظهر فى الأمثلة السابقة.

---

١) ذكر ابن كثير فى تاريخه توقيعاً واحداً للواثق، حينما كتب إليه أحد الشعراء قائلا:

جذبت دواعى النفس عن طلب الغنى وقلت لها عفى عن طلب النزر

فإن أمير المؤمنين لكفه مرار رحا الأرزاق دائمة تجرى

فوقع له الواثق فى رقعته: ((جذبتك نفسك عن امتهانها، ودعتك إلى صونها، فخذ ما طلبته هيناً)). وأجزل له العطاء. أنظر: البداية والنهاية – ١٠/٢٣٢.

ثالثا: لم يكن كتاب التوقيعات من الخلفاء يتكلفون فى تصاويرهم الفنية إلا ما جاء عفو الخاطر خادماً للمعنى المراد من غير تكلف أو إطالة لأنها تعالج الواقع.

رابعا: كما اعتمدت هذه التوقيعات على الفطرة السليمة والبديهة الحادة، والارتجال فى التعبير والثقافة الواسعة، والتجربة العميقة والخبرة الطويلة مع شدة التعبير بلا لين، والترفق من غير ضعف، انظر للجمع بين الموهبة والثقافة التى تعين علي إعمال العقل، وحضور الذهن التى تساعد على إخراج التوقيع البليغ المؤثر[١].

خامسا: جاءت معظم التوقيعات بصيغة الأمر، لإن لم يكن إقتباساً من آية كريمة او حديث شريف أو تضميناً لبيت من الشعر لأنها صدرت من رئيس لمرؤوسه لذا فهي تفيد التقرير والتنفيذ الفورى. فلا مجال فيها للتملق أو المداهنة او التخاذل، فهى تصيب كبد الحقيقة ويؤرة القصد[٢].

سادسا: أما مضامين هذه التوقيعات فكانت تسير فى اتجاهات متعددة، وإن كانت محددة ولها أغراض معدودة أهمها الأغراض السياسية والعسكرية: كالتهديد والوعيد، والترغيب والترهيب وكذلك الأغراض الاجتماعية، كإقامة العدل ورد المظالم، وتحسين أوضاع الطبقات الصغيرة، كل ذلك محاطاً بأطر دينية بينة، ومضامين إسلامية واضحة.

وهكذا كان نثر الخلفاء العباسيين فى عصرهم الأول غزيراً متنوعاً ما بين الخطب ورسائل ووصايا وعهود وتوقيعات، خدمت سياستهم الداخلية والخارجية، وأبرزت تفوقهم الأدبي والفكرى، وكانت مرآة صادقة لعصرهم الذى ترك بصمته البينة على وجه التاريخ الاسلامى خاصة والإنسانى عامة.

******

---

(١) انظر: النثر فى العصر العباسى: د. القاسم مناع، د. مأمون ياسين - ص٢٣٧.

(٢) انظر: المرجع السابق ص ٢٣٩.

ثبت مصادر البحث ومراجعه

١- الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي (أصوله وقضاياه) د.سعد أبو الرضا- مكتبة المعارف- الرياض- المملكة العربية السعودية- ١٤٠١هـ.

٢- أثر الفرس السياسي في العصر العباسي الأول: د. علي عبدالرحمن العمرو- مطابع الرجوي- القاهرة- عابدين-١٣٩٩هـ.

٣- الأدب الإسلامي وتاريخه في عصوره: العصر العباسي- د.عابد توفيق الهاشمي- مركز عبادي للدراسات والنشر- صنعاء - ١٤٢١هـ.

٤- الأدب وفنونه: د. محمد مندور - دار المطبوعات العربية - بيروت.

٥- أسد الغابة في معرفة الصحابة: لـ/ عز الدين ابن الأثير- دار الفكر للطباعة والنشر- بيروت - ١٤٠٩هـ.

٦- أسرار البلاغة: لـ/عبد القادر الجرجاني- الطبعة الخامسة- دار المنار- مصر.

٧- الإصابة في تمييز الصحابة: تأليف شيخ الإسلام وقاضي القضاة شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي الكناني العسقلاني المعروف بابن حجر- طباعة دار الكتب العلمية- بيروت.

٨- أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام: لـ/ عمر رضا كحاله- الطبعة العاشرة- مؤسسة الرسالة- بيروت ١٤١٢هـ.

٩- الأغاني: لأبي فرج الأصبهاني- دار الثقافة- بيروت- ١٩٨٣م.

١٠- الأوراق (أشعار أولاد الخلفاء): لأبي بكر محمد بن يحيى الصولي- دار المسيرة - بيروت - ١٤٠١هـ

١١- البداية والنهاية: لأبي الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي- الطبعة الرابعة- دار الكتب العلمية- بيروت- ١٤٠٧هـ.

١٢- البديع في نقد الشعر: أسامه بن منقذ- مطبعة مصطفى البابي الحلبي - القاهرة - ١٣٨٠هـ

١٣- بغداد فى تاريخ الخلافة العباسية- تأليف: أبى الفضل أحمد بن طاهر المعروف بابن طيفور- مكتبة المعارف- بيروت- ١٩٦٨م.

١٤- بناء القصيدة فى النقد العربى القديم فى ضوء النقد الحديث: للدكتور يوسف حسين بكار- دار الأندلس للطباعة والنشر- بيروت.

١٥- البيان والتبيين: لأبى عثمان بن بحر الجاحظ- تحقيق: عبد السلام هارون- الطبعة الرابعة – المجمع العلمى العربى الإسلامى- بيروت.

١٦- التاج فى أخلاق الملوك: لأبى عمرو بن بحر الجاحظ- تحقيق وتعليق د. عمر الطباع- دار الأرقم للطباعة والنشر- بيروت.

١٧- تاريخ آداب اللغة العربية: تأليف جرجى زيدان- منشورات دار مكتبة الحياة – بيروت- ١٩٨٣م.

١٨- تاريخ الأدب العربى- الأعصر العباسية: لـــ/عمر فروخ – دار العلم للملايين- بيروت – ١٤٠١هـ.

١٩- تاريخ بغداد- مدينة السلام: لأحمد بن الخطيب البغدادى- دار الكتاب العربى – بيروت.

٢٠- تاريخ الرسل والملوك: لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى دار الفكر – بيروت- ١٤١٨هـ.

٢١- تاريخ الشعر العربى حتى آخر القرن الثالث الهجرى: د. نجيب البهبيتى- الطبعة الرابعة – ١٩٧٠م- دار الفكر- الرباط.

٢٢- تاريخ النقد العربى إلى نهاية القرن الرابع الهجرى: د. محمد زغلول سلام – دار المعارف- مصر- ١٩٦٤م.

٢٣ - التعريفات لعلى بن محمد الشريف الجرجانى- مكتبة لبنان- بيروت- ١٩٦٩م.

٢٤- التفسير النفسى للأدب: د. عز الدين إسماعيل – الطبعة الرابعة – دار العودة – بيروت ١٩٨١م.

٢٥- التيارات الأجنبية فى الشعر العربى (منذ العصر العباسى حتى نهاية القرن الثالث الهجرى): د. عثمان موافى- مؤسسة الثقافة الجامعية - الإسكندرية - مصر.

٢٦- جواهر الأدب فى أدبيات وإنشاء لغة العرب: السيد أحمد الهاشمى- دار الفكر.

٢٧- حديث الأربعاء: د. طه حسين- الطبعة الحادية عشر- دار المعارف- مصر.

٢٨- الحيوان: لأبى عثمان بن عمرو الجاحظ- تحقيق: عبد السلام هارون- الطبعة الثانية: مطبعة ومكتبة مصطفى البابى الحلبى- القاهرة- ١٣٨٥م.

٢٩- الدر المنثور فى طبقات ربات الخدور: تأليف زينب بنت على فواز العاملى- تحقيق: منى الخراط- مكتبة التوبة: الرياض- ١٤٢١هـ.

٣٠- ديوان هارون الرشيد: جمع وتحقيق وشرح: د. سعد ضناوى- دار صادر - بيروت ١٩٩٨م.

٣١- ذيل الأمالى والنوادر: لأبى على إسماعيل القالى- مراجعة لجنة إحياء التراث العربى- دار الآفاق الجديدة - بيروت.

٣٢- رسالة الغفران: لأبى العلاء المعرى- الطبعة الأولى- مطبعة الشيخ إبراهيم اليازجى- مصر.

٣٣- روضة المحبين ونزهة المشتاقين: للشيخ الدين أبى عبد الله محمد بن قيم الحوزية- مطبعة السعادة: مصر- ١٣٧٥هـ.

٣٤- الزهرة لأبى بكر محمد بن داود الأصبهانى- تحقيق: إبراهيم السامرائى- الطبعة الثانية- مكتبة المنار- الأردن- ١٩٨٥م.

٣٥- زهر الآداب وثمر الألباب: لأبى إسحاق إبراهيم بن على الحصرى القيروانى- تحقيق: د. زكى مبارك ومحمد محيى الدين عبد الحميد- الطبعة الخامسة- دار الجيل- بيروت- ١٤١٩هـ.

٣٦- شروح ديوان الحماسة: للمرزوقى- لجنة التأليف والنشر: مصر ١٩٦٧م.

٣٧- شعر خلفاء بنى أمية: تحقيق ودراسة: د. السيد أحمد عمارة- دار الكتب المصرية- ١٤٠٨هـ.

٣٨- الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور: د. شوقى ضيف- الطبعة الثانية- دار المعارف – مصر.

٣٩- الصورة الفنية فى النقد الشعرى: د. عبد القادر الرباعى- دار العلوم للطباعة والنشر- الرياض- المملكة العربيةالسعودية – ١٤٠٥هـ.

٤٠- ضحى الأسلام: لأحمد أمين – الطبعة السادسة: مكتبة النهضة المصرية- ١٩٦٩م.

٤١- طبقات الشعراء: لـ/ عبد الله بن المعتز- تحقيق: عبد الستار أحمد فراج- الطبعة الرابعة- دار المعارف- مصر-١٩٨١م.

٤٢- طبيعة الشعر: د. محمد أحمد العزب- مطابع دار الكتاب: الدار البيضاء- ١٩٨٥م.

٤٣- العقد الفريد: لأبى عمر أحمد ابن عبد ربه الأندلسى- دار الكتاب العربى- بيروت- ١٩٩٠م.

٤٤- العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده: الحسن بن رشيق القيروانى الأزدى- تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد- الطبعة الخامسة- ١٤٠١هـ- دار الجيل بيروت.

٤٥- عيون الأخبار: لأبى محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى- دار الكتاب العربى للنشر- بيروت.

٤٦- فن الشعر: د. إحسان عباس – الطبعة الرابعة- ١٩٨٧م- دار الشروق للنشر والتوزيع- عمان – الأردن.

٤٧- الفن والأدب: د. ميشال عاصى- الطبعة الثالثة- مؤسسة نوفل- بيروت- ١٩٨٠م.

٤٨- الفن ومذاهبه فى النثر العربى: د. شوقى ضيف- الطبعة الحادية عشرة- دار المعارف- القاهرة- ١٩٩٠م.

٤٩- الفهرست: لابن النديم- دار المعرفة للطباعة والنشر- بيروت- توزيع دار الباز للنشر والتوزيع - مكة المكرمة.

٥٠- فوات الوفيات والذيل عليها: تأليف محمد بن شاكر الكتبى- تحقيق: د. إحسان عباس- دار صادر: بيروت.

٥١- فى النقد الأدبى: د. شوقى ضيف- الطبعة السادسة- دار المعارف- ١٩٨١م.

٥٢- قصر المأمون وأثره على العصر: د. سامى عابدين- دار النهضة العربية للطباعة والنشر- بيروت- ١٤٢٢هـ.

٥٣- القصيدة العباسية: قضايا واتجاهات: د. عبد الله التطاوى- مكتبة غريب للنشر- الفجالة- القاهرة.

٥٤- الكامل فى التاريخ: لـ/عز الدين أبى الحسن على ابن الأثير- دار صادر للطباعة والنشر- بيروت.

٥٥- الكامل فى اللغة والأدب: لأبى العباس محمد بن يزيد المبرد- مؤسسة المعارف للطباعة والنشر- بيروت.

٥٦- لسان العرب: لابن منظور- دار المعارف- مصر.

٥٧- المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها: لـ/عبد الله الطيب- الطبعة الثانية- دار الفكر- بيروت- ١٩٧٠م.

٥٨- مروج الذهب ومعادن الجوهر: على بن الحسن بن على المسعودى- تحقيق: الشيخ/ قاسم الشماعى الرفاعى- دار القلم- بيروت- ١٤٠٨هـ.

٥٩- معجم الأدباء - لـ/ياقوت الحموى- تحقيق: إحسان عباس- دار العرب الإسلامى- بيروت - ١٩٩٣م.

٦٠- معجم الشعراء: لأبى بعد الله محمد بن عمران المرزبانى- الطبعة الأولى - دار الكتب العلمية - بيروت.

٦١- مقالات الأدباء ومناظرات النجباء: لـ/على بن عبد الرحمن بن هذيل- دراسة وتحقيق/ د. عبد الرحمن بن عثمان الهليل- مؤسسة الرسالة - بيروت- ١٤٢١هـ.

٦٢- الملوك الشعراء: للدكتور/ جبرائل جبور- منشورات دار الآفاق الجديدة - بيروت.
٦٣- الموازنة بين الشعراء: د. زكى مبارك- المكتبة العصرية- صيدا - بيروت.
٦٤- موسيقى الشعر: د. إبراهيم أنيس- الطبعة الخامسة- مكتبة الأنجلو المصرية- القاهرة- ١٩٧٨م.
٦٥- موقف الشعر من الفن والحياة فى العصر العباسى: دز محمد زكى العشماوى- دار النهضة العربية - بيروت- ١٩٨١م.
٦٦- النثر الفنى فى العصر العباسى الأول اتجاهاته وتطوره: د.محمد عبد الغنى الشيخ- الدار العربية للكتاب- تونس- ١٩٨٨م.
٦٧- نصوص فى الشعر ونقده: د. شوقى ضيف- الطبعة الثانية- دار المعارف- مصر- ١٩٧٧م.
٦٨- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: لأحمد بن محمد المقرى- تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد - دار الكتاب العربى - بيروت.
٦٩- النقد الأدبى أصوله ونهجه: سيد قطب- الطبعة الخامسة- دار الشروق- بيروت، القاهرة- ١٤٠٣هـ.
٧٠- النقد المنهجى عند العرب: د. محمد مندور - الطبعة الثانية- دار نهضة مصر- القاهرة- ١٩٦٩م.
٧١- نهاية الأرب فى فنون الأدب: لـ/ شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويرى- المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر.
٧٢- الوافى بالوفيات: لـ/ صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى- اعتناء: دورتيا كرافولسكى - الطبعة الثانية- ١٤١١هـ- دار النشر- فرانز شتايز - شتوتغارت.
٧٣- الوساطة بين المتنبى وخصومه: للقاضى الجرجانى- تحقيق: عبد المتعال الصعيدى وأحمد الزين- مطبعة على صبيح وأولاده- مصر - ١٩٤٨م.
٧٤- وفيات الأعيان وأنباء أبناء انزمان: لأبى العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبى خلكان- تحقيق: د. إحسان - دار صادر - بيروت.